الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ٨٧ - ٤ مارس سنة ١٩٣٥ - السنة الثالثة

3me Année, No. 87. | Lundi-4-3-1935

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع شركة الفجر

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٨٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٣ — ٤ مارس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

مصر وأخواتها

كأنما السؤال عن الناس كسؤال الناس لا يتفق مع الرخاء ولا يكون مع الغنى! فإن مصر والعراق يكادان من سعة العيش لا يذكران مَن وراء الحدود؛ والوحدة العربية فى البلدين على الرأى الأغلب حديث خُرافة أو حديث مجاملة! فلولا الأدب الذى يجمع الفؤاد بالفؤاد، ويربط البلاد بالبلاد، ويصل الأحفاد بالأجداد، لظلت منابت العروبة ومواطن الاسلام أغفالا لا تُعرف، وأرحاماً لا تُبَلّ.

يزور المصرى قطراً من أقطار العرب، فيكون أول ما يرد على سمعه عتب المحبين على الهجر، ولوم الأقربين على القطيعة، وعذل الجيرة على التخاذل؛ فَيُلقى معاذيره الملوم المُحْرَج فى منطق عَىّ ودفاع غير ناهض؛ ثم يزداد حرجه وتتخاذل حججه كلما رأى قلوبهم تزخر بعواطفه، وصدورهم تجيش بأمانيه، وألسنتهم تضطرب بأخباره، ونهضتهم تسترشد بنهضته، ووجهتهم تسير مع وجهته؛ فصحفه تُقرأ، وكتبه تدرس، وسياسته تحتذى، وزعامته تتبع؛ ثم خصومته هى لهم خصومة، وحكومته هى عليهم حكومة، وقومه لقومهم أهل، وبلده لبلادهم قبلة. حينئذ يقول لنفسه

فهرس العـــدد

والخجل والعجب يتعاقبان على وجهه : إن وطنى مترامى الحدود فلماذا أحدُّه على الضيق ؟ وقومى ضخام العديد فلماذا أحصرهم على القلة ؟ وجيرانى كرام يصفون المودة ، ويَصْدُقون العطف ، ويولون المعونة ، فلماذا أجعل بينى وبينهم سداً من الإهمال والغفلة ؟ ان الأمم القوية الناجحة لَتُرخص الأموال والأنفس فى التمكين لأدبها ونفوذها وعروضها فى الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة فى البلد والنسب ، والوحدة فى اللغة والأدب ، والمشابهة فى الحظ والحالة ؟

دع ما ترشد اليه الغريزة من تعاطف الأهل ، وتناصر الضعاف ، وتعاون الجيرة ، وانظر فى الأمر من جهة الفائدة : أليست سورية منفذ العراق إلى البحر المتمدن ، والسودان طريق مصر إلى النهر المحيي ؟ ؟ ومع ذلك فالعراق مصروف الهم عن سورية ، ومصر قليلة العلم بالسودان ، فلا تعرف عنه إلا أنه جزء من سياستها ! أما أنه قطعة من جسمها ، وكلمة من اسمها ، فذلك ما لم تعلمه إلا بالسماع ، ولم تفهمه إلا فى المدرسة

* * *

يزور الرسالة الحين بعد الحين أخ من السودان أديب أو طالب ، فلا نسمعه يقول أول ما يقول إلا هذا المعنى الواحد فى صيغه المتعددة : إننا لنعلم عنكم كل شيء ، وإنكم لتجهلون عنا كل شيء ! فسياستكم لا تعرف السودان إلا فى المفاوضات ، وأدبكم يقف بالوادى عند (الشلالات). وصحافتكم لا تدرى أفى الأرض نحن أم فى السموات ! فهل عُنى سياسى بتعرف بلادنا ، أم تفرغ أديب لتصوير حياتنا ، أم توفر صحافى على درس أحوالنا ؟ ولعمرى إذا فرقتنا السياسة ولم يجمع شملنا الأدب ، فعلى أى صورة نلتقى ، وعلى أى حال نتحد ؟

ذلك ما يشكوه السودانى المخلص ، ويأسى على حدوثه المصرى المخلص ، وبين الأسى والشكوى ناشئة من الأمل المسفر ، وعزيمة من العمل المثمر ، تتجليان فى العاملين الصادقين من شباب الوادى وكهوله . فالعمل الجليل الذى هُديتْ إليه ووُفّقتْ فيه (البعثة الاقتصادية المصرية)(١) من الرحلة إلى السودان ، والاختلاط بأهله ، والاتصال برجاله ، والاطلاع على أحواله ، والتحدث إلى حكامه ، فاتحةُ فصل جديد من تاريخ النيل الحديث ، سيسجل فيه رجال الأعمال والأموال تَصَافُقَ البلدين الشقيقين على المودة ، وتواصلهما على المنفعة ، وتآلفهما على التعاون

فتحت هذه البعثة الميمونة أبواب السودان الحصينة للنشاط الاقتصادى المصرى ، وهيأت الأسباب إلى اجتماع الأيدى التى يسقيها النيل ويطعمها النيل على استغلال خصبه فى عمران أرضه ، واستثمار خيره لسكان حوضه

فاذا أضفنا إلى ذلك عناية الأدب والصحافة بتوحيد الهوى والثقافة ، ألفنا من أغاريد الوادى ، أعاليه وأسافله ، نشيداً واحداً تردده الشفاه البيض والسمر ، وتتجاوب به سلاسل الجبال الخالدة

* * *

إن الاقتصاد والأدب يُكوّنان الجسم والروح ، فلا بد منهما أولا لانشاء الأمة وإذكاء النهضة وإحكام الصلة ؛ وما غزا الغربيون ممالك الشرق إلا بالتعليم والتجارة ؛ أما السياسة فلا تأتى إلا آخر الأمر ، فتؤيد الواقع ، وتثبِّت الحِلة ، وتنظم العلاقة ، وتحمى المنفعة

من أجل ذلك كان احتفال المصريين بوداع (البعثة المصرية) ولقائها ، واحتفاء السودانيين بفكرتها وأعضائها . هزات من العواطف الصادقة والحماسة الدافقة والشعور الواثق المطمئن بأسفار المستقبل عن وجوه الفوز ، فيتصل الحبل وينتظم الشمل وتقوم الوحدة بين الشعبين الأخوين على أساس صحيح

* * *

إن من وراء حدودنا اليابسة يا قوم آداباً لا تقل عن آدابنا يحسن أن تُعرف ، وشعوباً تتصل بأنسابنا يجب أن تُؤلف ، وأسواقا تفتقر إلى انتاجنا ينبغى أن تُكتشف

أما حَصْرُ النظر فى حدود البحر فإدمان يُفرّق البصر ، ويجمع الخطر ، ويهجم بقوميتنا وأمانينا على الغرق !

احمد حسن الزيات

(١) بعثة تألفت من أعضاء الجمعية الزراعية الملكية وأعضاء الغرفة التجارية المصرية ومن بعض كبار الزراع والصحفيين ثم سافرت إلى السودان فى شهر فبراير لتوثق العلائق الاقتصادية بينه وبين مصر بدرس مشروع شركة من المصريين والسودانيين لشراء الأرض الزراعية واستثمارها ، وانشاء فرع للجمعية الزراعية بالخرطوم ، ودعوة بنك مصر لانشاء فرع له فى عاصمة السودان فنجحت فى رحلتها نجاحا عظيما

الطُّفولتـــان

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

عصمت ابنُ فلان باشا طفلٌ مُترَف يكادُ ينعصرُ ليناً ، وتراه يَرِفُّ رفيفاً مما نشأ فى ظلال العزّ ، كأن لروحه من الرِّقّة مثلَ ظلّ الشجرة حول الشجرة . وهو بين لِداته من الصِّبيان كالشَّوكة الخضراء فى أُملودها الريان ، لها منظرُ الشوكة على مجسّة ليِّنة ناعمة تُكذِّب أنها شوكة إلا أن تيبس وتتَوقَّح

وأبوهُ « فلان باشا » مدير لمديرية كذا ، إذا سُئل عنه ابنُه قال : إنه مدير المديرية . لا يكاد يعدو هذا التركيب ، كأنه من غُرور النعمة يأبى إلا أن يجعلَ أباه مديراً مرّتين . . . . وكثيراً ما تكون النعمةُ بذيئةً وقاحاً سيّئة الأدب فى أولاد الأغنياء ، وكثيراً مايكون الغنى فى أهله غِنًى من السيئات لاغير !

وفى رأى عصمت أن أباه من عُلوّ المنزلة كأنه على جناح النَّسر الطائر فى مَسْبَحه إلى النجم ، أما آباءُ الأطفال من الناس فهم عنده من سقوط المنزلة على أجنحة الذباب والبعوض !

ولا يغدو ابنُ المدير إلى مدرسته ولا يتروّحُ منها إلا وراءه جُنديٌّ يمشى على أثره فى الغدْوة والرَّوْحة إذ كان ابن المدير ، أى ابنَ القوّة الحاكمة ، فيكون هذا الجنديُّ وراء هذا الطفل كالنبهة له عند الناس ، تفصحُ شارته العسكريةُ بلغات السابلة جمعاء أن هـذا هو ابن المدير . فاذا رآه العربىّ أو اليونانىُّ ، أو الطليانىُّ أو الفرنسىُّ ، أو الانجليزىُّ أوكائنٌ من كان من أهل الألسنة المتنافرة التى لا يفهمُ لسانٌ منها عن لسان — فهموا جميعاً من لغة هذه الشارة أن هذا هو ابنُ المدير ؛ وأنه من الجندىّ الذى يتبعُهُ كالمادة من القانون وراءها الشرح ... !

ولقد كان يجب لابن المدير هذا الشرفُ الصِّبيانىّ . لو أنه يوم وُلِد لم يولد ابنَ ساعته كأطفال الناس ، بل وُلِد ابنَ عشر سنينَ كاملةٍ لتشهد له الطبيعةُ أنه كبيرٌ قد انصدعت به معجزة ؛ وإلا فكيف يمشى الجنديُّ من جنود الدولة وراء طفل فيتبعُه ويخدُمه ويَنصاعُ لأمره ؛ وهذا الجنديُّ لو كان طريدَ هزيمة قد فرَّ فى معركةٍ من معارك الوطن ، وأُريدَ تخليدُه فى هزيمته وتخليدُها عليه بالتصوير — لما صُوِّرَ إلا جندياً فى شارته العسكرية منقاداً لمثل هـــذا الطفل الصغير كالخادم ؛ فى صورة يُكتَب تحتها : « نُفايَة عسكريّة ! »

***

ليس لهذا المنظر الكثير حدوثه فى مصر إلا تأويلٌ واحد : هو أن مكان الشخصيات فوق المعانى وإن صَغُرتْ تلك وجلَّت هذه ؛ ومن هنا يكذبُ الرجلُ ذو المنصب ، فيُرفع شخصُه فوق الفضائل كلها ؛ فيَكْبُرُ عن أن يكذبَ ، فيكونَ كَذِبُه هو الصدق ، فلا يُنكَر عليه كَذِبُه أىْ صِدْقُه ...! ويخرج من ذلك أن يتقررَ فى الأمة أن كَذِبَ القوّةِ صِدْقٌ بالقوّة !

وعلى هذه القاعدة يُقاسُ غيرها من كل ما يُخذَل فيه الحق . ومتى كانت الشخصياتُ فوق المعانى السامية طفقت هذه المعانى تموجُ مَوْجها محاولةً أن تعلو ، مُكْرَهةً على أن تنزل ؛ فلا تستقيم على جهةٍ ولا تنتظمُ على طريقة ؛ وتُقْبِلُ بالشئ على موضعه ، ثم تَكُرُّ كَرَّها فتُدبِرُ به إلى غير موضعه ، فتضلُّ كل طبقةٍ من الأمة بكُبرائها ، ولا تكون الأمةُ على هذه الحالة فى كل طبقاتها إلا صِغاراً فوقهم كبارُهم ؛ وتلك هى تهيئةُ الأمة للاستعباد متى ابتُليت بالذى هو أكبر من كبارها ؛ ومن تلك تنشأ فى الأمة طبيعةُ النفاق يحتمى به الصِّغَرُ من الكِبَر ، وتنتظم به أُلفةُ الحياة بين الذلّة والصَّولة !

***

وتخلّفَ الجندى ذات يوم عن موعد الرَّواح من المدرسة ، فخرج عصمت فلم يجده ، فبـدا له أن يتسكّع فى بعض طرق المدينة لينطلقَ فيه ابنُ آدم لا ابن المدير ، وحنّ حنينَه الى المغامرة فى الطبيعة ، ولبسَت الطرق فى خياله الصغير زينتها الشعرية بأطفال الأزقة يلعبون ويَتهوّشون ويتعابثون ويتشاحنون ، وهم شتى وكأنهم أبناء بيتٍ واحد مسّت بكلّ من كل رحِمٌ ، إذ لا ينتسبون فى اللهو إلا إلى الطفولة وحدها

وانساق عصمت وراء خياله ، وهرَب على وجهه من تلك الصورة التى يمشى فيها الجندىّ وراء ابن المدير ، وتَغَلْغَل فى

فى الأزقة لا يبالى ما يعرفه منها وما لا يعرفه ، إذ كان يسير فى طرق جديدة على عينه كأنما يحلمُ بها فى مدينة من مدن النوم.

وانتهى الى كبكبة من الأطفال قد استجمعوا لشأنهم الصبيانى ، فانتبذ ناحية ووقف يصغى اليهم متهيباً أن يقدم ، فاتصل بسمعه ونظره كالجبان ، وتسمَّع فاذا خبيث منهم يعلّم الآخر كيف يضرب إذا اعتدى أو اعتُدى عليه ، فيقول له : إضرب أينما ضربت ، من رأسه ، من وجهه ، من الحلقوم ، من مراق البطن ؛ قال الآخر : وإذا مات ؟ فقال الخبيث : وإذا مات فلا تقل إنى أنا علمتُك . . . !

وسمع طفلاً يقول لصاحبه : أما قلت لك إنه تعلّم السرقة من رؤيته اللصوصَ فى السيما ؟ فأجابه صاحبه : وهل قال له أولئك اللصوص الذين فى السيما كن لصاً واعملْ مثلنا ؟

وقام منهم شيطان فقال : يا أولاد البلد ، أنا المدير ؛ تعالوا وقولوا لى « يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات . . » فقال الأولاد فى صوت واحد : « يا سعادة الباشا ، إن أولادنا يريدون الذهاب إلى المدارس ، ولكننا لا نستطيع أن ندفع لهم المصروفات » فردّ عليهم (سعادته) : اشتروا لأولادكم أحذية وطرابيش وثياباً نظيفة ، وأنا أدفع لهم المصروفات

فنظر اليه خبيث منهم وقال : ياسعادة المدير ، وأنت فلماذا لم يشتر لك أبوك حذاء . . . ؟

وقال طفل صغير : أنا ابنك يا سعادة المدير ، فأرسلني إلى المدرسة وقت الظهر فقط . . . !

***

وكان عصمت يسمع ونفسه تهتزّ وترفّ بأحساسها كالورقة الخضراء عليها طلّ الندى ، وأخذ قلبه يتفتّح فى شعاع الكلام كالزهرة فى الشمس ؛ وسكر بما يسكر به الأطفال حين تقدم لهم الطبيعة مكان اللهو معدّاً مهيأ كالحانة ليس فيها إلا أسباب السكر والنشوة ، وتمامُ لذتها أن الزمن فيها منسىّ ، وأن العقل فيها مُهمَل . . .

وأحسّ ابن المدير أن هذه الطبيعة حين ينطلق فيها جماعة الأطفال على سجيّتهم وسجيّتها — إنما هى المدرسة التى لا جُدران لها ، وهى تربيةُ الوجود للطفل تربيةً تتناوله من أدقّ أعصابه فتُبدّد قواه ثم تجمعها له أقوى ما كانت ، وتفرغه منها ثم تملؤه بما هو أتمّ وأزيد . وبذلك تكسبه نموّ نشاطه ، وتعلّمه كيف ينبعث لتحقيق هذا النشاط ، فتهديه إلى أن يُبدع بنفسه ولا ينتظر من يُبدع له ، وتجعلُ خطاه دائماً وراء أشياء جديدة فتسدّده من هذا كله الى سر الابداع والابتكار ، وتلقّيه العلمَ الأعظمَ فى هذه الحياة ، علمَ نضرة نفسه وسرورها ومرحها ، وتطبعه على المزاج المتطلّق المتهلّل المتفائل ، وتتدفق به على دنياه كالفيضان فى النهر ، تفور الحياة فيه وتفور به ؛ لا كأطفال المدارس الخامدين ، تعرف للواحد منهم شكل الطفل وليس له وجوده ولاعالَمه ، فيكونُ المسكين فى الحياة ولايجدها ، ثم تراه طفلاً صغيراً وقد جمعوا له همومَ رجل كامل !

ودبّت روحُ الأرض دبيبها فى عصمت ، وأوحت إلى قلبه بأسرارها ، فأدرك من شعوره أن هؤلاء الأغمارَ الأغبياءَ من أولاد الفقراء والمساكين ، هم السعداء بطفولتهم . وأنه هو وأمثاله هم الفقراءُ والمساكينُ فى الطفولة ؛ وأن ذلك الجندى الذى يمشى وراءه لتعظيمه إنما هو سجن ، وأن الألعاب خير من العلوم ، إذ كانت هى طفليّةَ الطفل فى وقتها ، أما العلوم فرجولةٌ مُلزَقةٌ به قبل وقتها توقّره وتحوّله عن طباعه ، فتقتل فيه الطفولة وتهدم أساسَ الرجولة ، فينشأ بين ذلك لا إلى هذه ولا إلى هذه ، ويكون فى الأول طفلاً رجلاً ، ثم يكون فى الآخر رجلاً طفلاً

وأحسّ مما رأى وسمع أن مدرسة الطفل يجب أن تكون هى بيته الواسع الذى لا يتحرّج أن يصرخ فيه صراخه الطبيعى ، ويتحرك حركته الطبيعية ، ولا يكون فيه مدرسون ولا طلبة ، ولا حاملو العِصىّ من الضباط ؛ بل حقّ البيت الواسع أن تكون فيه الأبوّةُ الواسعة ، والأخوّةُ التى تنفسح للمئات ؛ فيمرّ الطفل المتعلم فى نشأته من منزل إلى منزل الى منزل ، على تدريج فى التوسّع شيئاً فشيئاً ، من البيت الى المدرسة الى العالَم

***

وكان عصمت يحلم بهذه الأحلام الفلسفية ، وطفولتُه تشبُّ وتسترجل ، ورخاوته تشتدّ وتتماسك ؛ وكانت حركاتُ

الأطفال كأنها تحركه من داخله، فهو منهم كالطفل فى السيما حين يشهد المتلاكمين والمتصارعين، يستطيره الفرح، ويتوثب فيه الطفلُ الطبيعي بمرحه وعنفوانه، وتتقلص عضلاته، ويتكشف جلده، وتجتمع قوته؛ حتى كأنه سيظاهر أحدَ الخصمين ويلكم الآخرَ فيُكوِّره ويصرعه، ويَفُضُّ معركة الضرب الحديديّ بضربته الليّنة الحريرية . . . !

فما لبث صاحبنا الغريرُ الناعمُ أن تخشّن، وما كذّب أن اقتحم، وكأنما أقبل على روحه الشارعُ والأطفال ولهوهم وعبثهم، إقبال الجوّ على الطير الحبيس المعلّق فى مسمار، إذا انفرج عنه القفص، وإقبالَ الغابة على الوحش القنيص إذا وثب وثبة الحياة فطار بها، وإقبال الفلاة على الظبي الأسير إذا ناوصَ فأفلتَ من الحبالة

وتقدم فادّغمَ فى الجماعة وقال لهم: أنا ابن المدير. فنظروا اليه جميعاً ثم نظر بعضهم الى بعض، وسفرت أفكارهم الصغيرة بين أعينهم، وقال منهم قائل: إن حذاءه وثيابه وطربوشه كلها تقول إن أباه المدير

فقال آخر: ووجهه يقول إن أمه امرأة المدير!

فقال الثالث: ليست كأمك يابعْطيطى ولا كأم جُعْلُص!

قال الرابع: يا ويلك لو سمع جُعلص، فان لكماته حينئذ لاتترك أمك تعرف وجهك من القفا!

قال الخامس: ومن جعلص هذا؟ فليأت لأريكم كيف أصارعه، فأجتذبه، فأعصره بين يديّ، فأعتقلُ رجلَه برجلي، فأدفعه، فيتخاذل، فأعركه، فيخرُّ على وجهه؛ فأسمره فى الأرض بمسمار!

فقال السادس: هاها! إنك تصف بأدق الوصف مايفعله جعلص لو تناولك فى يده . . . !

فصاح السابع: ويلكم! ها هوذا. جعلص، جعلص، جعلص!

فتطاير الباقون يميناً وشمالاً كالورق الجاف تحت الشجر إذا ضربته الريح العاصف. وقهقه الصبي من ورائهم فثابوا الى أنفسهم وتراجعوا. وقال المستطيل منهم: أما إني كنت أريد أن يعدو جعلص ورائي، فأستطردُ اليه قليلاً أطمعه فى نفسي، ثم أرتدُّ عليه فآخذه كما فعل «ماشيست الجبار[1]» فى ذلك المنظر الذى شاهدناه

وقهقه الصبيان جميعاً . . . . ! ثم أحاطوا بعصمت إحاطةَ العشّاق بمعشوقة جميلة، يحاول كلٌّ منهم أن يكون القرَّب المخصوص بالحظوة، لا من أجل أنه ابن المدير فحسب، ولكن من أجل أن ابن المدير تكون معه القروش . . . فلو وُجدت هذه القروش مع ابن زبال لما منعه نسبه أن يكون أمير الساعة بينهم الى أن تنفد قروشه فيعود ابن زبال . . . !

وتنافسوا فى عصمت وملاعبته والاختصاص به، فلو جاء المدير نفسه يلعب مع آبائهم ويركبهم ويركبونه، وهم بين نجار وحداد، وبنّاء وحمّال، وحوذيّ وطباخ، وأمثالهم من ذوى المهنة والمكسبة الضئيلة — لكانت مطامع هؤلاء الأطفال فى ابن المدير، أكبر من مطامع الآباء فى المدير

وجرت المنافســـةُ بينهم مجراها، فانقلبت الى مُلاحاة، ورجعت هذه الملاحاة الى مشاحنة، وعاد ابن المدير هدفاً للجميع يدافعون عنه وكأنما يعتدون عليه، إذ لايقصد أحدٌ منهم أحدا بالغيظ إلا تعمدَ غيظ حبيبه ليكون أنكأ له وأشدَّ عليه!

وتظاهروا بعضهم على بعض، ونشأت بينهم الطوائل، وأفسدهم هذا الغنى المتمثلُ بينهم. ويا ما أعجبَ إدراك الطفولة وإلهامها! فقد اجتمعت نفوسهم على رأى واحد. فتحولوا جميعاً الى سفاهة واحدة أحاطت بابن المدير، تخاطرَه أحدُهم فى اللعب فقمرَه، فأبى إلا أن يعلوَ ظهره ويركبه؛ وأبى عليه ابنُ المدير ودافعه، يرى ذلك ثَلماً فى شرفه ونسبه وسطوة أبيه؛ فلم يكد يعتلُّ بهذه العلة ويذكر أباه ليعرّفهم آباءهم . . . . حتى هاجت كبرياؤهم، وثارت دفائنهم، ورقصت شياطين رءوسهم؛ وبذلك وضع الغنيُّ حقدَ الفقرِ بإزاء سُخرية الغنى؛ فألقى بينهم مسئلةَ المسائل الكبرى فى هذا العالم، وطرحها للحل . . . . . !

وتنفّشوا للصّولة عليه، فسخر منه أحدُهم، ثم هزأ به الآخر، وأخرج الثالثُ لسانَه؛ وصدمه الرابع بمنكبه؛ وأخّشَ عليه الخامس؛ ولكزه السادس؛ وحثا السابع فى وجهه التراب!

(١) بحار إيطالى كالمارد؛ عريض الألواح، وثيق التركيب؛ يعجب الأطفال به أشد الأعجاب، وإذا شهدوه فى السيما كاد تمثيله يشب بهؤلاء الأطفال الى سن الرجولة فى ساعة واحدة

وجهد المسكين أن يفرّ من بينهم فكأنما أحاطوه بسبعة جدران فبطل إقدامه وإحجامه ، ووقف بينهم كما كتب الله . . . ! ثم أخذته أيديهم فانجدل على الأرض ، فتجاذبوه يمرّغونه فى التراب !

وهم كذلك إذ انقلب كبيرهم على وجهه ، وانكفأ الذى يليه ، وأزيح الثالث ، ولُطِم الرابع ؛ فنظروا ، فصاحوا جميعاً : «جُعْلُص ، جعلص !» وتواثبوا يشتدّون هرباً . وقام عصمت ينتخل التراب من ثيابه وهو يبكى بدمعه وثيابه تبكى بترابها ...! ووقف ينظر هذا الذى كشفهم عنه وشرّدهم صولته ، فاذا جعلص وعليه رجفان من الغضب ، وقد تبرطمت شفته وتقبض وجهه كما يكون « ماشيست » فى معاركه حين يدفع عن الضعفاء

وهو طفل فى العاشرة من لِدات عصمت ، غير أنه مُحتنِك فى سنّ رجل صغير ؛ غليظ عَبل شديد الجِبْلة متراكب بعضه على بعض ، كأنه جِنىّ مُتقاصِر يَهُمّ أن يطول منه المارد . فأنِس به عصمت ، واطمأنّ إلى قوّته ، وأقبل يشكو له ويبكى !

قال جعلص : ما اسمك ؟

قال : أنا ابن المدير . . . !

قال جعلص : لا تَبْكِ يا ابن المدير . تعلّم أن تكون جلداً ، فان الضرب ليس بذُلّ ولا عار ، ولكن الدموع هى تجعله ذلاً وعاراً ؛ إن الدموع لتجعل الرجل أنثى . نحن يا ابن المدير نعيش طول حياتنا إما فى ضرب الفقر أو ضرب الناس ، هذا من هذا ؛ ولكنك غنىّ يا ابن المدير ، فأنت كالرغيف (الفينو) ضخم مُنتفخ ولكنه ينكسر بلمْسة ، وحشوه مثل القطن !

ماذا نتعلم فى المدرسة يا ابن المدير إذا لم تعلمك المدرسة أن تكون رجلاً يأكل من يريد أكله ؛ وماذا تعرف إذا لم تكن تعرف كيف تصبر على الشر يوم الشر ، وكيف تصبر للخير يوم الخير ، فتكون دائماً على الحالتين فى خير ؟

قال عصمت : آه لو كان معى العسكرى !

قال جعلص : ويحك ؛ لو ضربوا عنزاً لما قالت : آه لو كان معى العسكرى !

قال عصمت : فمن أين لك هذه القوة ؟

قال جعلص : من أنى أعتمل بيدىّ فأنا أشتدّ ، وإذا جعت أكلت طعامى ؛ أما أنت فتسترخى ، فاذا جعت أكلك طعامك ؛ ثم من أنى ليس لى عسكرى . . . !

قال عصمت : بل القوة من أنك لستَ مثلنا فى المدرسة ؟

قال جعلص : نعم ، فأنت يا ابن المدرسة كأنك طفل من ورق وكرّاسات لا من لحم ، وكأن عظامك من طباشير ! أنت يا ابن المدرسة هو أنت الذى سيكون بعد عشرين سنة ، ولا يعلم إلا الله كيف يكون ؛ وأما أنا ابن الحياة ، فأنا من الآن ، وعلىّ أن أكون « أنا » من الآن !

أنتَ . . .

* * *

وهنا أدركهما العسكرىّ المسخر لابن المدير ، وكان كالمجنون يطير على وجهه فى الطرق يبحث عن عصمت ، لا حباً فيه ولكن خوفاً من أبيه . فما كاد يرى هذا المفرَّ على أثوابه حتى رنت صفعته على وجه المسكين جعلص

فصعّر هذا خده ، ورشق عصمت بنظره ، وانطلق يعدو عدْوَ الظليم !

يا للعدالة ! كانت الصفعة على وجه ابن الفقير ، وكان الباكى منها ابن الغنى . . . !

* * *

وأنتم أيها الفقراء ، حسبكم البطولة ؛ فليس غِنىّ بطل الحرب فى المال والنعيم ، ولكن بالجراح والمشقات فى جسمه وتاريخه ؟

طنطا مصطفى صادق الرافعي

السرّ الموزّع

للآنسة النابغة « مىّ »

وسط الهرج الذى يحدثُ عادةً عند انفضاض مجلس من المجالس تنأر الزائرون فى الردهة يهمّون بالانصراف مودّعين أهل الدار وشاكرين لهم حفاوتهم ، متبادلين مع هؤلاء وأولئك التحية والمصافحة ، متواعدين فيما بينهم على الاجتماع فى فرصة قريبة

أما ذلك الفتى فمضى يتسلل خلسةً ، هرباً من كلّ شخص خطر وللتملص منهم جميعاً : « والشخص الخطر » فى تلك الحال هو أىّ شخص قد يشتبك معهُ فى حديث ويصحبهُ إلى الخارج . إنه يحتاج إلى الوحدة لا يعكر عليه صفاءها أحد ، لأنه فى تلك الحالة النفسية التى تبدو فيها الحياةُ طريفةً وتبدو فيها الخليقةُ وكأنها خرجت الساعة من يد البارى غضةً جديدة

خرج إلى الرصيف وجال نظرهُ يبحثُ بين الناس والسيارات فاستقرت عيناه على خمس فتيات من اللائى حضرن الاجتماع ، وقد أحطن بسيارة كبيرة أخذن يتوارين فى داخلها الواحدة بعد الأخرى ، فكانت الأخيرة فى التوارى صاحبةُ الثوب ذى الزرقة « الكهربائية » . فجهد الفتى ليرى منها جميع حركاتها فرأى فيما رأى أنها التفتت إلى الوراء ، شأن من يبحث عن شىء أو شخص . وسرعان ما لمحتْ رأسهُ والتقت عيناها بعينيه عن بعد . فأدركت أن نظره يتبعها ويرقبها ، وأدرك هو أنها تأخرت والتفتت لتبحث عنه . فما إن تلاقى نظراهما وفاجأهما ذلك الادراك حتى أعرض كلٌّ منهما على عجل كأنما هو يخجل بانكشاف أمره . وعند ما تحركت السيارة مندفعةً إلى الأمام أرسل الفتى نظره يشيعها فى حرية واطمئنان

— هأنذا ! أتنتظرنى أم تبحث عنى ؟

لقد وقع ما كان يخشاه ، ولحق به زميل لم يكن ليتحاشى مصاحبته أو ينفر من حديثه عادة . ولكن الآن . . .

— هيا بنا إلى جروبى !

فتلكأ الشاب قليلاً وقال : — إنى على موعد

— أىّ موعد ؟ ألم نتفق عند ما جئنا هذه الدار على موافاة أصحابنا عند جروبى بعد الخروج من هنا ؟

— آه . . . نسيت !

— أنسيت الموعد أم نسيت اتفاقنا ؟

— نسيت الموعد . . .

— نسيت الموعد فلم تذكره إلاّ على الرصيف . . . إذاً أوصلك بسيارتى إلى المكان الذى تقصد إليه ، ثم أسبقك إلى جروبى حيث توافينا بعدئذٍ

رأى الفتى أن لا مفرّ من المقدور . ولو نجح فى التفلت من صاحبه هذا فليس مضموناً أن يتفلت من غيره فى مكان آخر . فتراخت عزيمته واستسلم :

— الواقع أن الموعد اختيارى يمكن تأجيله . هيا إلى جروبى

***

أما الفتيات الخمس فقد سارت بهن السيارة إلى ناحية الجزيرة وهن يتحدثن جميعاً فى آن واحد وليس بينهن من تصغى . وعلامَ الاصغاء ؟ المهم هو الكلام . وقد سُرّت الفتيات بتلاقيهن فى هذا الاجتماع ، وسررن باتفاق والدتهن بعده على الذهاب معاً لتأدية فروض التعزية فى بعض البيوت ، فاتفقن فيما بينهن على ركوب سيارة إحداهن التى تعهدت بأن « توزع » صاحباتها على بيوتهن مجاناً لوجه الله الكريم وبدون « أكسيدان » . وثَمّ فرصة مواتية لتبادل الآراء وإبداء الملاحظات على حفلة الاستقبال وعلى الذين حضروها ، إذا تيسر شىءٌ من ذلك عند ما يأبين جميعاً احتمال فريضة السكوت . . . بيد أنهن سكتن فجأة عندما أنشأت إحداهن تنتقد هندام السيدات وتبرجهن وذوقهن وجمالهن . هذا حديث لذيذ حقاً ، يوافقن عليه ويؤيدنه وإن كن فى قلوبهن مقتنعات بعكس ما يقال . وإذ توغل النقد فأمسى لاذعاً ، طربن طرباً ورنت ضحكاتهن بريئة ، فى نظرهن على الأقلّ . ونادت إحداهن صاحبة الثوب الأزرق قائلة : ألا تشاركيننا فى الضحك ؟ ألا تسمعين ؟

— أنا اتخذتُ لى محلاً مختاراً قرب « الشوفير » ولذلك أصبحتُ مسؤولة عن سلامتكنّ ، وعلىّ أن أظلّ هادئةً لئلا يحدث لنا « أكسيدان »

— بعد الشرّ ! إذا تحتم « الأكسيدان » فليكنْ بعد وصولى إلى البيت سالمة . وهاقد وصلنا والحمد لله ! فتستطيعين

الآن أن تستبدلي بمكانك مكاني داخل السيارة

وبعد وقوف السيارة ونزول الفتاة التي كانت تتكلم ، حدثت مناقشة لاقناع جارة السوّاق بتغيير مكانها . فأبت مؤكدة أنها هنا على ما يرام ، وأنها تريد حراستهن إلى النهاية . واستأنفت السيارة السير والفتيات يضحكن من جارة السوّاق لأنها « كونسرڤاتريس » وينصحن لها بأن تلبس العمامة للاندماج في هيئة كبار العلماء في الأزهر

كانت صاحبة الثوب الأزرق تسمع لغوهن ولا تعي معناه . إنها بعيدة عنهن وعن العالم بما فيه ومن فيه ، بعيدة عن النيل الذي يجري تحتها ، عن سحر الجزيرة المنتشر حواليها ، عن جمال الغروب وقد تمازج فيه انهزام النور واقتحام الظلام . لقد حدث في ذلك الاجتماع شيء مدهش قلب الدنيا رأساً على عقب . وهو بعد شيء بسيط يكاد يكون عادياً ، وكأنها كانت تنتظره على غير معرفة منها

اتفق أن فتى كان على مقربة منها في ذلك الصالون ، فصنع لها مثل ما صنع لغيرها ، ومثل ما يصنع كل رجل له ولو بعض الألمام بآداب الاجتماع . كانت فتاة الدار تبذل جهدها مع معاونيها ومعاوناتها لارضاء الضيوف وقد تعبت كثيراً في القيام بمهمتها . فسارع ذلك الفتى إلى مساعدتها فجر أمام صاحبة الثوب الأزرق طاولة صغيرة وضع عليها قدح الشاي وجال يقدم ما يصحب الشاي من قطع الحلوى الصغيرة الجافة . فتناولت صاحبة الثوب الأزرق قطعة ورفعت بصرها إليه في ابتسام ، وقالت : « مرسى » . وكان عليها أن ترد بنظرها في الحال إلى جارتها التي كانت تتحدث حديثاً طويلاً . ولكنها لم ترد نظرها ولم تخفضه . لأن نظره سار رسولاً إلى أعماق عينيها ، إلى أعماق جوانحها ، إلى أعماق كيانها ، فاهتدى هناك إلى شيء كان يطلبه ، ولم تدر هي ماهيته . وكان وجهه جاداً ونظره جاداً ، شأن الرجل عندما ينتبه إلى أمر هام

فجمدت الابتسامة على شفتيها ، وكأن السر الذي وجده فيها يسأل السر الذي بعث به نظره : « ماذا ؟ » . فخيل إليها أن سره يجيب : « أردت أن أنبهك فقط . . . لأنك نبهتني وأنت لا تعلمين »

لحظة لا غير ، لحظة لم ينتبه إليها أحد من المحيطين بها ، ولكنها كانت طويلة مايئة كالدهور . وتكررت تلك اللحظة عندما التفتت في الشارع فلمحته يشيعها ، وشعرت بالسر مقبلاً من نظره البعيد ، يتوغل في كيانها من جديد . وفي هذا المساء الجميل المتهادي في رفق على هذه الشواطئ الفتانة ، هي لا تعي شيئاً ولا ترى أحداً . الوجود كله تلخص في ذلك النظر وفي السر الذي يحتويه . على صفحة الماء المائجة نظر مليء بالسر . في الفضاء حولها نظر مليء بالسر . في الغصون المتشابكة نظر مليء بالسر . في الأبعاد المترامية ، في ألوان الشفق ، في هبوب النسيم ، وبخاصة في صميم كيانها نظر مليء بالسر يهمس : أردت أن أنبهك ...

— أله مثل هذا النظر مع سائر النساء ؟

هرولت السيارة في شارع الجيزة ولوت متحولة إلى ناحية الروضة لتعود إلى المدينة من شارع القصر العيني . وطول الطريق على صفحة الماء ، في امتداد السبل ، في رؤوس الأشجار ، في المركبات والسيارات ، في أشباح السابلة ، في واجهات المخازن ، في مصابيح الشوارع ، في كل مكان لم يكن هناك إلا ذلك النظر الواحد وسره المكنون

— أهذه طريقته في النظر إلى النساء ؟

ووقفت السيارة فنزلت صاحبة الثوب الأزرق مودعة صويحباتها ، وكأنها تتكلم وتتحرك مرغمة . ودخلت مخدعها ، فاذا بالنظر ينتظرها هناك ، مع أنها لم تتخيل وجوده عندما غادرت هذا المكان قبل ثلاث ساعات

دنت من مرآتها تتعرف فيها هيئتها فرسمت لها المرآة وجهه لا وجهها ، وأقبل النظر يتسرب إلى كيانها مع سره . فتأملته ملياً وسألت :

— ألك مثل هذه النظرة مع غيري ؟

فلم تسمع لا من النظر ولا من نفسها الجواب

أطالت التحديق في المرآة ، وقالت تخاطبه : — أين أنت الآن ؟ كيف تجرى حياتك ؟ كيف تجرى حياتك كل يوم ؟ ماذا أنت صانع بنظرك في هذه الدقيقة ؟

في تلك الدقيقة كان الفتى بين أصحابه عند جروبي ، وقد رفع كأس الوسكي إلى شفتيه ناظراً بعينين ناعستين إلى الغادة الجالسة قربه في ثوب عاجي ، وقائلاً ببطء :

— أشرب « سرك »

« مي »

الدعوة الفاطمية السرية

ضوء على موضوعها وغاياتها

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمــــــة

هذه خلاصــة موجزة لتلك الدعوة الألحادية الغريبة التى اضطلع بها لحساب الحاكم بأمر الله ذلك الداعية المغامر حمزة بن على ، ومما يلفت النظر بنوع خاص أن حمزة بن على لم يفته خلال شرح مذهبه أن يدافع عن شذوذ الحاكم بأمر الله وتصرفاته المتناقضة ، وأن يحاول أن يفسرها بما يلائم دعوته ويدعمها ، أجل ، لقد كان فى تصرفات هذا الذهن الهائم المضطرب مايبعث على التأمل ، ومايجب أن يحمل لاعلى الشذوذ والتخريف ، ولكن على الحكمة والسمو الى مالا يرتفع الذهن العادى الى فهمه وتعليل بواطنه ، هكذا يقدم الينا حمزة تصرفات مولاه الحاكم ؛ فاذا كان الحاكم قد ترك الصلاة والنحر ، وإذا كان قد أبطل صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر ، وأسقط الزكاة عن الناس ، فمعناه تحليل ذلك للكافة[1] ، وإذا كان الحاكم يتبع أحياناً سياسة الاضطهاد بالنسبة للنصارى واليهود ، فذلك لأنه يريد أن يهلك المرتدين والمارقين ، ومن بقى منهم يؤدون الجزية ، وهم اليهود ، ويجب عليهم وعلى النصارى المرتدين من التوحيد ، وهم المنافقون أن يلبسوا أزياء خاصة ، وأن يعلقوا فى صدورهم وآذانهم أثقالا خاصة من الرصاص[2] ؛ وإذا كان الحاكم يؤثر التقشف فى مأكله وملبسه وركوبه ، فيركب الحمير مجردة عن الديباج والحلى الذهبية ، فذلك لحكمة باطنة يؤولها الداعى بآيات من القرآن ، ويفسرها بدلائل رمزية غريبة[3] ، وإذا كان الحاكم يخرج من سرداب القصر الى البستان ، وإذا كان يرتاد بستان المقس وغيره من بساتين القاهرة ويطوف أحياناً فى المدينة ، فذلك أيضاً لحكم باطنة لاتدركها الكافة ؛ ومايرتكبه أهل الفساد بجوار البساتين التى يرتادها من المنكر والفحشاء ، إنما يرتكب فى طاعته[1] ، وما يرتكبه الحاكم من ضروب البطش والسفك ؟ إنه مظهر لسطوة الحاكم « الالـهية » فهو يفتك بأكابر الدولة دون خوف ولاحرج كما فعل مع حاجبه برجوان ووزيره ابن عمار ومع غيرهما من الأكابر والزعماء ؛ ثم هو يخرج بالليل دون ركب ودون سلاح ، لايخشى نقمة أو اعتداء ، ويخمد كل ثورة تشهر عليه ، وكثيراً ماينفرد بنفسه فى جب الصحراء دون خوف من أحد من عسكره أو بطانته ، وتلك أعمال وصفات ليست للبشر !

هكذا يفسر الداعى لنا أعمــــال الحاكم وتصرفاته المثيرة الدهشة ؛ وما اعتبره المعاصرون شذوذاً وإسرافاً وجنوناً ، وما يسمه التاريخ بميسم التناقض والتخريف والاغراق ، إنما هو فى زعم الداعى السمو فوق مدارك البشر ، والتحلى بصفات ليست للبشر ؛ ومهما يكن فى ذلك التفسير من غلو وتخريف ، فهو محاولة ذكية جريئة لتبرير مالم تبرره الشرائع والمجتمع ، ومالم يبرره التاريخ

ولا يقف حمزة بن على عند الدعوة لسيده ومولاه ، بل يدعو لنفسه أيضاً ؛ فاذا كان الحاكم هو « الالـه » ، فان الداعى هو رسوله ونبيه ؛ وعلى هذا فان حمزة الذى يصف نفسه فى معظم رسائله بهادى المستجيبين ، ينتحل النبوة لنفسه صراحة ، ويزعم أن هذه النبوة قد تأيدت بالمعجزات التى أسبغها مولاه الحاكم عليه[2] ؛ ألم يشتبك عشرون من رجاله مع مائتين من عسكر خصومه ، فلا يقتل من أصحابه سوى ثلاثة وينهزم الخصوم ؟ ألم تنشب موقعة أخرى فى المسجد بين قلة من أنصاره وكثرة من خصومه فينتصر الصحب دائماً[3] ؟ فهذه أعمال تخرج عن قدرة البشر ، وهى من معجزات الداعى !

* * *

ويبدو من التواريخ التى يذيل بها الداعى رسائله أنها كتبت بين صفر سنة ٤٠٨ هـ ، وأواخر سنة ٤٠٩ هـ . وكما أن الداعى يصف لنا سنة ٤٠٨ هـ بأنها هى أول سنى قائم الزمان (الحاكم) ، فهو يصفها أيضاً بأنها أول سني « ظهور عبد مولانا ومملوكه هادى المستجيبين » ومعنى ذلك أن حمزة بن

(١) ص ٢٩ — ٣٤
(٢) ص ١٠١ (٣) ص ١٤٧، ١٤٨

(١) ص ١٥٠ والظاهر أن بعض محال اللهو والبغاء العام كانت تقع بجوار هذه البساتين (٢) ص ١٣٠ من المخطوط (٣) ص ١٣٣

على بدأ القيام بدعوته فى أوائل سنة ٤٠٨ هـ ؛ ونستدل أيضاً من تعاقب التواريخ فى هذه الرسائل الثمانية أنها تكون وحدة متصلة قائمة بذاتها ؛ وهذه الرسائل هى متن الدعوة وهى ذروتها ؛ وقد استمر حمزة فى تنظيم دعوته وبثها تحت رعاية الحاكم وإشرافه حسبما ينوه فى بعض رسائله ؛ ولكن الحاكم زهق غيلة فى شوال سنة ٤١١ هـ فماذا حدث لتلك الدعوة بعد ذهابه ؟ لقد كان اختفاء الحاكم بتلك الصورة الفجائية الغامضة مستقى جديداً للدعاة ، فزعم بعضهم أنه اختفى ليظهر فى عصر آخر ، أو أنه رفع الى السماء ، وأن فى هذا الاختفاء ذاته ما يؤيد الزعم بألوهيته(١) وقد استمرت هذه الدعوة الألحادية بعد مصرع الحاكم عصراً آخر ، وإن كانت قد اتخذت سبلاً ومواطن أخرى ، وأمامنا مجموعة أخرى من تلك الرسائل الألحادية هى التى أشرنا اليها فيما تقدم(٢) ؛ ويبدو من موضوعها وأسلوبها وألفاظها أنها من تأليف حمزة بن على ذاته ؛ وقد ذيلت بتواريخ وضعها — فى جمادى الآخرة من سنى ولى الحق العاشرة ، وفى صفر سنة إحدى عشرة من سنى قائم الزمان ، وفى السنة الرابعة عشرة من سنى قائم الزمان . . . الخ ؛ وعهد قائم الزمان يبتدىء كما تقدم فى سنة ٤٠٨ هـ ، وعلى ذلك تكون هذه الرسائل قد كتبت بين سنة ٤١٨ وسنة ٤٢٢ هـ ، ويكون حمزة بن على قد استمر قائماً بدعوته الألحادية إلى هذا التاريخ أو بعده بقليل ؛ ولم تنته الدعوة بمصرع الحاكم بأمر الله ، ولكنها استمرت تغذيها قوى وعناصر أخرى

ولقد كانت هذه الدعوة الألحادية بلا ريب جزءاً من الدعوة الفاطمية السرية ، ولكنها اتخذت فى عصر الحاكم بأمر الله صورة خاصة ، وانحرفت عن غايتها العامة لتعمل على تحقيق غاية خاصة . وقد نقل الينا المقريزى بياناً شافياً عن هذه الدعوة السرية الشهيرة ومراتبها التسع(٣) ، وهى فى مجموعها فكرة إلحادية فلسفية نظمت فى مراتب متعاقبة للعمل على هدم العقيدة الاسلامية بصفة خاصة والعقيدة الدينية بصفة عامة ، واستبدالها بفكرة فلسفية ترتفع فوق أفهام الكافة . بيد أن هذه الدعوة الألحادية العامة تنحرف فى عصر الحاكم لتعمل على تحقيق فكرة خاصة هى « ألوهية » قائم الزمان أعني الحاكم بأمر الله ، وهى مع ذلك تجرى مجراها العام فى مجالس الحكمة بالقصر ودار الحكمة . وإنها لصفحة من أغرب صحف الثورة على الأسلام ؛ بيد أنها كانت ثورة سرية تقصد الى غزو العقول والأفهام ، ولم تكن فورة عنيفة تسحق كل شىء فى طريقها بالقوة المادية كما كانت فورة القرامطة ، وهذه الرسائل الكلامية الغريبة التى يتركها لنا الداعى تلقى ضياء على كثير من التفاصيل الخاصة التى كانت ترتبط بالدعوة السرية الفاطمية ، ويفتن الدعاة فى سبكها وتنظيمها . ولقد نظمت الدعوة الفاطمية قبل عصر الحاكم بأمر الله بكثير ؛ ومنذ عصر المعز لدين الله وولده العزيز تعقد مجالس الحكمة ؛ ولكنها كانت عندئذ علنية ، وكانت فقهية تجرى المحاضرة فيها فى فقه آل البيت ومبادىء الشيعة ؛ وكانت الخلافة الفاطمية يومئذ تتشح بشعار الأمامة الأسلامية على أنها من حق الفاطميين وتراثهم الخالص ، وعلى أنها عنوان الزعامة الشرعية من الوجهتين السياسية والدينية ، ولكن هذه الدعوة الدينية السياسية ما لبثت أن تطورت بسرعة ، واتخذت صبغتها الألحادية المغرقة فى عصر الحاكم بأمر الله . ومن الغريب أن يكون الحاكم ، ذلك الذهن الهائم المضطرب ، هو القائم بأعظم دور فى تغذية هذه الحركة وبثها ، وهو المنشىء لدار الحكمة التى لبثت مبعثها وملاذها عصراً ، بيد أن هذا الأغراق ذاته كان ضربة شديدة للدعوة الفاطمية ، لأنه جعلها وقفاً على رهط من الدعاة المغامرين الخبثاء ، وباعد بينها وبين الكافة ، وأسبل عليها ألواناً خطرة من الزيغ والألحاد ، ولهذا فقدت الدعوة الفاطمية غير بعيد قوتها وأهميتها وإن كانت مجالس الحكمة قد استمرت بعد ذلك حتى أوائل القرن السادس

ونلاحظ من جهة أخرى أن معظم أولئك الدعاة الذين اضطلعوا ببث هذه المبادىء والتعاليم الألحادية فى مصر لم يكونوا من المصريين ، وإنما كانوا من الأجانب الذين اجتذبتهم الخلافة الفاطمية ببهائها ومشاريعها السرية ؛ وقد ذكر لنا حمزة بن على أسماء بعض أقطاب الدعاة مثل على بن عبد الله اللوائى ، ومبارك

(١) راجع ابن خلكان — ج ٢ ص ١٦٧

(٢) هى المحفوظة بدار الكتب رقم ٣٥ عقائد النحل

(٣) الخطط — الطبعة الأهلية ج ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها . وقد ترجم المستشرق كازانوفا هذا البيان إلى الفرنسية ونشره بعنوان Doctrine Secréte des Fatimides « التعاليم السرية الفاطمية » — وذلك فى مجلة المباحث الأثرية الشرقية B. d'Archeologie Orientale وقرن ترجمته ببعض شذور عن دعوة القرامطة والاسماعيلية ، ولكنه لم يفطن الى رسائل الدعاة الفاطميين ولم ينتفع بها

ابن على ، وأبو منصور البردعى ، وأبو جعفر الحبال ، هـذا عدا الأخرم ومحمد بن اسماعيل الدرزى السابق ذكرها ؛ ولم يحسن المصريون استقبال هؤلاء الدعاة الخطرين ، بل قاوموهم ، وفتكوا بهم فى أحيان كثيرة ، أو اضطروهم إلى الفرار ؛ ولم يستطع واحد منهم أن ينشىء له بمصر فرقة حقيقية من الأنصار والمؤمنين ، وإن يكن الدرزى قد استطاع أن ينشىء له بالشام فرقة جديدة هى طائفة الدروز التى مازالت قائمة حتى اليوم

وهنا تعرض نقطة ما تزال موضع الجدل ، وهى من هو مؤسس مذهب الدروز الحقيقى ؟ وماذا كان نصيب حمزة بن على فى إنشائه ؟ والمعروف أن بعض المستشرقين ، ومنهم دى ساسى ، يعتبرون أن حمزة هو مؤسس المذهب الحقيقى ، لأن كثيراً من تعاليمه ورسائله تمثل فى كتب الدروز المقدسة (١) ، وقد أشكل على بعضهم فهم مزاعم حمزة ، فاعتقد أنه هو الذى يحمل لقب «قائم الزمان» الذى يتردد فى رسائله ودعواته ، فى حين أنه صريح فى إسناد هذا الوصف للحاكم بأمر الله . والواقع أن فرقة الدروز تنسب قبل كل شىء إلى الدرزى ، وهو الداعى محمد بن اسماعيل الذى تقدم ذكره ، وفى بعض رسائل حمزة ما يلقى شيئاً من الضياء على نصيبه الحقيقى من الدعوة ؛ ومن المرجح أن الدرزى سبق حمزة فى القدوم إلى مصر ، وفى الدعوة إلى « ألوهية » الحاكم بأمر الله كما قدمنا ؛ ولكن الظاهر أيضاً أن حمزة ما لبث أن تفوق عليه وفاز دونه بالزعامة والقيادة ، وأن خصومة نشبت بينهما كان الظافر فيها هو حمزة . ويشير حمزة إلى ذلك فى رسالته الرابعة الموسومة بالغاية والنصيحة حيث يحمل على الدرزى الذى هو « نشتكين » (وهو لقب تركى يطلق على الدرزى ويعرف به) ويقول إنه « تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، وهو الضد الذى سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الامام ، ويدعى منزلته . . . وكان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر وخرج من تحت الثوب ، والثوب هو الداعى والسترة التى أمره بها إمامه حمزة بن على الهادى إلى توحيد مولانا جل ذكره » ثم يقول إن الدرزى أنكر التعاليم وتمرد وأثار للجدل بينهما ، وغره ما كان يضربه من زغل الدنانير والدراهم (١) ، ويبدو من ذلك جلياً أن حمزة كان يقف من الدرزى موقف الامام والأستاذ ، وأن الدرزى خرج على تعاليمه ومبادئه ، واستقل بعد ذلك بانشاء فرقة — الدروز — فى الشام ، فهو المؤسس الأول لمذهب الدروز ، وقوامه مزيج من نظرياته وتعاليمه ، ونظريات حمزة وتعاليمه ، ومن الصعب أن نحدد ما لكل من الداعيين فى إنشاء هذا المذهب الغريب من المبادىء والنظريات ، بل من الصعب أن نعين منهما الأصل والناقل ؛ بيد أن بعض النظريات الأساسية التى يعرضها حمزة فى رسائله ما زالت قواماً لمذهب الدروز مثل القول بحلول الروح القدس فى شخص الحاكم ، واعتباره « قائم الزمان » ؛ ثم إن التاريخ الذى يتخذه حمزة لمبدإ هذه الدعوة هو سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) وهى نفس السنة التى اتخذها الدروز بدأ لتاريخهم المقدس ؛ وعلى ذلك فاذا كان الدرزى هو الذى أسس فرقة الدروز ، فان لتعاليم حمزة أثراً كبيراً فى صوغ هذا المذهب

ولا ريب أن حمزة بن على كان نموذجاً قوياً لأولئك الدعاة ؛ ففى تفكيره وآرائه وشروحه ما يشهد بكثير من الذكاء والبراعة ؛ ولكن إنشاء دين جديد وعقيدة جديدة والدعوة إلى « ألوهية » بشر ، محاولة تقصر عنها جهود أذكى الدعاة وأقواهم ؛ ومن ثم فأنا نلمس فى آرائه وتدليله كثيراً من ضروب التناقض والضعف ، ونراه يلجأ إلى الرموز والخفاء كلما أعيته الحجة ، ولا يحمل هذا المزيج الذى يقدمه الينا من الشروح والأساطير اليهودية والنصرانية والاسلامية كثيراً من طابع الابتكار والطرافة ، ثم هو فوق ذلك يقدم الينا رسالته فى أسلوب ركيك ينم عن ضعف بيانه العربى ؛ ومع ذلك فان هـذا التراث الذى انتهى الينا من جهود الدعاة يلقى كثيراً من الضياء على أسرار الدعوة الفاطمية وغاياتها ، وهو بذلك يعتبر من الوجهة التاريخية وثيقة لها قيمتها وخطورتها (٢)

محمد عبد الله عنان
المحامى

---

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية فى كلمتى «درزى» « وحمزة » . ولدى ساسى كتاب فى عقائد الدروز عنوانه Exposé de La Relegion des Druses

(١) راجع المخطوط ص ١٢٥ — ١٢٨

(٢) نرى أن نشير هنا إلى مجموعة ثالثة من الرسائل الألحادية التى انتهت إلينا من آثار العصر الفاطمى ، وهى تحفظ بدار الكتب تحت رقم ٢٠ عقائد النحل . وهى بلا عنوان ولا خاتمة ، غير أنه يبدو من قراءتها أنها ترتبط أشد الارتباط بما تقدم من الرسائل ؛ وفى رأينا أنها ليست من تأليف حمزة بن على لاختلاف أسلوبها ولهجتها عن الرسائل الأخرى ؛ ويلوح لنا أنها من كتابة أحد صغار الدعاة ؛ وفيها شرح لبعض الخلال والمسائل كالصدق والدعاء والتحذير والنميمة . . . الخ ؛ وبعض الوقائع التى حدثت للدعاة : وهى فى غاية من الركاكة والضعف من حيث التفكير والأسلوب

الليث بن سعد

محدث مصر وفقيهها ورئيسها *

للأستاذ علي الطنطاوي

قال الامام الشافعي : الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به

وقال الامام أحمد : ليس في أهل مصر أصح حديثاً من الليث

عَلَم شامخ من أعلام الاسلام ، وإمام من أئمة الدين ، وأحد أفراد الدنيا علماً وذكاء ، ونُبْلاً ورفعةً ، وسخاء وكرماً ؛ أجمعوا على أنه عَدْل مالك في الفقه ، ونظيره في الاجتهاد ، وانه لمصر مثل مالك للمدينة : لا يفتى ومالك في المدينة ، ولا يفتى والليث في مصر وهو بعدُ أعظم جاهاً من مالك ، وأكثر مالاً وأسخى يداً ، وأجزل عطاء . . . بَيْد أن الله قيّض لمالك من دوّن علمه ، وكتب مسائله ، وحرّر مذهبه ، فعاش ونما واتسع ، وكثر أتباعه ومقلدوه ، واندثر مذهب الليث ونُسي اسمه ، فلا يذكره إلا المشتغلون بالرواية الاسلامية ، المنقطعون لدراستها ، العاكفون على كتبها . . .

وما مثل الليث بالذي يُنسى ، وما كان الليث نكرة في الرجال ، ولئن أنكره اليوم بعض الشباب أو جهلوا قدره ، أو شغلهم عنه وعن أمثاله « أندره جيد » وهذا الآخر . . « بول ڤاليري » فلقد عرف له الأولون فضله وعلمه ، وسموّه ورفعته . فعاش رئيساً في العلماء ، مقدّماً عند الخلفاء ، مطاعاً عند الولاة ، مبجلاً عند الخاصة ، موقراً عند العامة ، وازدحمت عليه النعم ، وأقبلت عليه الخيرات ، ودنت منه الأماني ، فأوتي العلم والعقل والصحة والمال والسيادة والجاه ، وأوتي مع هذا كله نفساً أكبر من هذا كله ، فما التفتت إليه ، ولا تمسكت به ، ولا شغلها عن دينها وتقواها . مالت إليه الدنيا فمال عنها ، ومنح من كل نعمة أوفاها فما قصر في شكر ، ولا زهد في أجر ؛ وكان سيّدَ مصر ، أمرُهُ قبل أمر الولاة ، وحكمه فوق حكم القضاة ، فما اقتنص بذلك دنيا ، ولا غُمِص عليه في بطن ولا فرج ؛ وكان دخله بين عشرين وثمانين ألف دينار في العام ، فما كنز بيضاء ولا صفراء ، ولا منعها فقيراً ، ولا أمسكها عن ذي حاجة ، فأطبق العلماء على إجلاله ، واتفق المصنفون على الثناء عليه ، وعقدت القلوب على حبّه ، وأجمع الناس على احترامه

اسمه وأصله ومولده :

هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفَهمي . كان أبوه من موالي قريش ، ثم افترض في بني فَهْم (وهم بطن من قيس عَيْلان خرج منهم جماعة من العلماء) وتبعه الليث بعده ، فكان اسمه في ديوان مصر ، في موالي بني كنانة من فَهْم ؛ وقيل كان مولى خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي

وكنيته أبو الحارث

ولد في قرقشندة (١) (قرية بأسفل مصر على أربعة فراسخ من الفسطاط) فهو مصري المولد والمنشأ ، وأصل أسرته من أصبهان . قال الليث : نحن من أهل أصبهان ، فاستوصوا بهم خيراً ، وقيل إنهم من الفرس ، ولم يصحّ ذلك

وكان مولده يوم الجمعة ١٤ شعبان سنة ٩٤ ، قال الليث : قال لي بعض أهلي : إني ولدت سنة اثنتين وتسعين ، والذي أوقن به أني ولدت سنة أربع وتسعين

(١) هكذا سماها ياقوت وابن حجر والسمعاني وغيرهم ، وفي القاموس ووفيات الأعيان وحياة الحيوان وغيرها قلقشندة (باللام) قلت : واليها ينسب (القلقشندي) صاحب (صبح الأعشى)

* جمعنا هذه الترجمة من :

١ ـ الرحمة الغيثية لابن حجر (ص٢) ٢ ـ تاريخ بغداد (ج ١٣ص١) ٣ ـ وفيات الأعيان (ج ١ ص٥٥٤) ٤ ـ تهذيب تاريخ ابن عساكر (مخطوط في المكتبة العربية بدمشق ج١٤ ص١٨١) ٥ ـ التاريخ الصغير للبخاري (ص٢٠٠) ٦ ـ الانساب للسمعاني (ص ٤٣٥) ٧ ـ تاريخ الكندي (ص ١٢٨ وغيرها) ٨ ـ تهذيب التهذيب (ج ٨ ص٤٩٥) ٩ ـ تذكرة الحفاظ (ج ١ ص ٢٠٧) ١٠ ـ دول الاسلام للذهبي (ج ١ ص ٨٨) ١١ ـ مرآة الجنان لليافعي (ج ١ ص ٣٦٩) ١٢ ـ الديباج المذهب لابن فرحون (ص٢٩) ١٣ ـ حياة الحيوان للدميري (ج ٢ ص ٣٥٠) ١٤ ـ حسن المحاضرة للسيوطي (ج١ ص١٣٤) ١٥ ـ خلاصة التذهيب للخزرجي (ص ٣٢٣) ١٦ ـ معجم البلدان (ج ٧ ص ٥٨) ١٧ ـ تاريخ الخلفاء (ص ١١٢) ١٨ ـ تهذيب الأسماء للنووي (ج ٢ ص ٧٤) ١٩ ـ الأعلام للزركلي (ص ٨٢٢) وقد تركنا الأسانيد اختصاراً فمن شاء فليرجع في معرفتها إلى هذه الصفحات

شيوخه :

قال أبو نعيم الأصبهانى (فى حلية الأولياء) : أدرك الليث نيفاً [1] وخمسين من التابعين

سمع الليث بمصر من يزيد بن أبى حبيب [2] وجعفر بن ربيعة [3] والحارث بن يعقوب [4] وعبيد الله بن أبى جعفر [5] وخالد بن يزيد [6] وخير بن نعيم [7] وسعيد بن يزيد [8]

وحج الليث سنة ١١٣ . وكان عمره تسعة عشر أو عشرين ، فسمع فى حجته تلك من عطاء بن أبى رباح [9] وهشام بن عروة [10] ويحيى بن سعيد الانصارى [11] وأبى الزبير المكى [12] وعبد الله ابن أبى مليكة [13] وعمرو بن شعيب [14] وقتادة [15] وعمرو بن دينار [1] ونافع [2]

قال الليث : حججت أنا وابن لهيعة [3] فرأيت نافعاً مولى ابن عمر فدخلت معه إلى دكان علاف ، فقال : من أين ؟ قلت : من أهل مصر ، قال : ممن ؟ قلت : من قيس . قال : ابن كم ؟ قلت : ابن عشرين ، قال : أما لحيتك فلحية ابن أربعين ! وحدثنى . فمر بنا ابن لهيعة ، فقال من هـذا ؟ قلت : مولى لنا فلما رجعنا إلى مصر ، جعلت أحدّث عن نافع فأنكر ذلك ابن لهيعة ، وقال : أين لقيته ؟ قلت : أما رأيت العبد الذى كان فى دكان العلاف ؟ هو ذاك !

وخرج الليث إلى العراق سنة ١٦١

قال أبو صالح [4] : خرجنا معه من مصر فى شوال وشهدنا الأضحى فى بغداد ، وقال لى الليث ونحن فى بغداد : سَلْ عن قطيعة بنى جدار ، فاذا أرشدت اليها فاسأل عن منزل هُشَيم الواسطى [5] فقل له : أخوك ليث المصرى يقرئك السلام ، ويسألك أن تبعث اليه بشىء من كتبك

فلقيت هُشيما فدفع إلىّ شيئاً ، فكتبنا منه وسمعته مع الليث ، وكان الليث قد كتب من علم الزهرى [6] كثيراً ، قال : فأردت

(١) قلت : والأصح أن يقال أدرك خمسين ونيفاً لأنها لاترد إلا بعد العدد كما فى اللسان

(٢) هو يزيد بن سويد الأزدى المصرى مفتى مصر وأول من أظهر فيها علوم الدين والفقه وكان نوبياً أسود حجة حافظاً للحديث توفى سنة ١٢٨

(٣) هو جعفر بن ربيعة بن شرجيل بن حسنة الكندى وثقه أحمد وأبو زرعة توفى سنة ١٣٦

(٤) هو الحارث بن يعقوب (مولى قيس بن سعد بن عبادة) المصرى وثقه بن معين وكان عابداً يقوم الليل كله توفى سنة ١٣٠

(٥) هو عبيد الله بن أبى جعفر الكنانى بالولاء المصرى الفقيه أحد الأعلام . قال ابن سعد : هو فقيه زمانه ، وكان عالماً عابداً زاهداً توفى سنة ١٣٦

(٦) هو خالد بن يزيد الجمحى بالولاء المصرى الاسكندرانى وثقه النسائى توفى سنة ١٣٩

(٧) هو خير بن نعيم بن مرة الحضرمى قاضى مصر وقاضى برقة توفى سنة ١٣٧

(٨) هو سعيد بن يزيد الحميرى الاسكندرانى وثقه أحمد وابن معين وكان من العباد المجتهدين توفى باسكندرية سنة ١٥٤

(٩) هو عطاء بن أسلم بن صفوان تابعى من أجلاء الفقهاء ولد فى جند باليمن ونشأ فى مكة فكان مفتى أهلها ومحدثهم . قال ابن سعد : انتهت اليه الفتوى بمكة ، وقال أبو حنيفة : ما لقيت أفضل من عطاء ، وقال ابن عباس وقد سئل عن شىء : يا أهل مكة تجتمعون على وعندكم عطاء ؟ قيل إنه حج أكثر من ٧٠ حجة توفى سنة ١١٤

(١٠) هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام أحد الأعلام ومن أكابر أهل الحديث ولد بالمدينة ورحل إلى بغداد فتوفى فيها سنة ١٤٦

(١١) هو يحيى بن سعيد بن قيس بن عمرو الأنصارى البخارى قاضى المدينة . قال ابن سعد : كان ثقة حجة كثير الحديث ، وكان يوازى الزهرى فى الكثرة ، قال أحمد : هو أثبت الناس توفى سنة ١٤٣

(١٢) هو محمد بن مسلم بن تدرس المكى أحد الأئمة وثقه ابن معين والنسائى وابن عدى توفى سنة ١٢٨

(١٣) هو عبدالله بن عبدالله بن زهير (وهو أبو مليكة) بن عبدالله بن جدعان أدرك ثلاثين من الصحابة وولاه ابن الزبير قضاء الطائف ثقة مات سنة ١١٧

(١٤) هو عمرو بن شعيب بن عبد الله بن عمرو بن العاص نزيل الطائف وثقه النسائى وحقق البخارى سماعه من جده عبد الله توفى سنة ١١٨

(١٥) هو قتادة بن دعامة بن قتادة السدوسى البصرى مفسر حافظ ضرير أكمه قال أحمد : قتادة أحفظ أهل البصرة وكان مع علمه بالحديث رأساً فى اللغة وأيام العرب . قال ابن المسيب : ما أتانا عراقى أحفظ من قتادة . احتج به أرباب الصحاح توفى سنة ١١٧

(١) هو عمرو بن دينار الجمحى بالولاء المكى أحد الأعلام قال ابن مسعر : ثقة ثقة ثقة سنة ١٢٥

(٢) هو نافع المدنى أبو عبد الله من أئمة التابعين بالمدينة كان علامة متفقاً على رياسته ، كثير الرواية للحديث ، ثقة ، وهو ديلمى الأصل مجهول النسب أصابه عبد الله بن عمر صغيراً فى بعض مغازيه ، ونشأ بالمدينة وأرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن . توفى سنة ١٢٠

(٣) عبد الله بن لهيعة بن فرعان الحضرمى قاضى الديار المصرية . قال الامام أحمد : محدث مصر ابن لهيعة . وقال سفيان الثورى : عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع . ولى قضاء مصر للمنصور العباسى سنة ١٥٤ فأجرى عليه ٣٠ ديناراً كل شهر فأقام عشر سنين وصرف سنة ١٦٤ واحترقت داره وكتبه سنة ١٧٠ فبعث اليه الليث بألف دينار . مات ١٧٤

(٤) هو كاتب الليث عبد الله بن صالح الجهنى بالولاء . قال أبو زرعة حسن الحديث وغلطه غيره توفى سنة ٢٢٣

(٥) هو هشيم بن بشر بن أبى حازم الواسطى نزيل بغداد ، حافظ ، كان محدث عصره ، لزمه الامام أحمد أربع سنين توفى سنة ١٨٨

(٦) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى القرشى المدنى تابعى جليل وإمام علم ، كان عالم الحجاز والشام وكان آية فى الحفظ حتى أنه قال : ما استودعت قلبى شيئاً فنسيته . قال الليث : مارأيت

أن أركب البريد اليه الى الرصافة نخفت ألاّ يكون ذلك لله فتركته أى إنه آثر أن يروى عنه بالواسطة خشية أن يكون فى ذهابه اليه وسماعه منه حظ نفسى ، فلا يكون ذلك خالصاً لله وحده

وسمع من سعيد المقبرى[١] ويونس بن يزيد[٢] وغيرهم وسمع منه خلق كثير

منزلته عند العلماء

قال الامام أحمد بن حنبل : مافى هؤلاء المصريين أثبت من الليث ، لاعمرو بن الحارث[٣] ولا أحد . ثم قال : الليث بن سعد ؟ ماأصح حديثه ! وجعل يثنى عليه

فقال رجل لأبى عبد الله (يعنى أحمد) . إنسان ضعّفه فقال : لايدرى

وقال مرّة : ليس فيهم (أى أهل مصر) أصح حديثاً من الليث وعمرو بن الحارث يقاربه

وقال الامام الشافعى : الليث أفقه من مالك ، إلاّ أن أصحابه لم يقوموا به ، أى لم يدوّنوا علمه ، ولم يحرّروا مذهبه فضاع واندثر

وقال : مافاتنى أحد فأسفت عليه ما أسفت على الليث وابن أبى ذئب[٤]

وقال ابن حبان[٥] (فى الثقات) : كان من سادات أهل زمانه فقهاً وورعاً وعلماً وفضلاً وسخاء

وقال ابن أبى مريم[٦] : ما رأيت أحداً من خلق الله أفضل من ليث ، وما كانت خصلة يتقرب بها الى الله عز وجل إلا كانت تلك الخصلة فى الليث

وقال أبو يعلى الخليلى : كان إمام وقته بلا مدافعة

وقال يحيى بن بكر : ما رأيت فيمن رأيت مثل الليث ، وما رأيت أكمل منه ؛ كان فقيه البلد ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو والحديث والشعر والمذاكرة (الى أن عدّ خمسة عشرة خصلة) ما رأيت مثله

وقال : الليث أفقه من مالك ، ولكن كانت الحظوة لمالك

وقال سعيد بن أبى أيوب[١] : لو أن مالكاً والليث اجتمعا كان مالك عند الليث أبكم ، ولباع الليث مالكاً فيمن يريد

وسئل أبو زرعة[٢] : الليث يحتج بحديثه ؟ قال : أى لعمرى

وقال يحيى بن معين[٣] : ثبت

وقال يعقوب بن شيبة[٤] : ثقة وقال مثل ذلك محمد بن سعد[٥]

وقال النووى[٦] (فى تهذيبه) : أجمعوا على جلالته وأمانته وعلوّ مرتبته فى الفقه والحديث

قالوا : وكل مافى كتب مالك من قوله (وأخبرنى من أرضى من أهل العلم) فانما يعنى به الليث بن سعد

البقية فى العدد القادم — **على الطنطاوى**

عالماً قط أجمع من ابن شهاب ، وقال مالك : لم يكن فى الناس له نظير توفى سنة ١٢٤

(١) هو سعيد بن أبى سعيد المقبرى المدنى ثقة جليل توفى سنة ١٢٤

(٢) يونس بن يزيد الأموى بالولاء . وثقه النسائى وغيره توفى سنة ١٥٩

(٣) هو عمرو بن الحارث بن يعقوب الانصارى مولى قيس بن سعد ابن عبادة . الفقيه المصرى المقرئ أحد الأئمة مات سنة ١٤٨

(٤) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشى العامرى المدنى أحد الأئمة الأعلام . قال أحمد يشبه بابن المسيب . وهو أصلح وأورع وأقوم بالحق من مالك : ولما حج المهدى دخل مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فقال له رجل : قم فهذا أمير المؤمنين ، فقال ابن أبى ذئب إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدى : دعه لقد قامت كل شعرة فى رأسى ، مات سنة ١٥٩

(٥) هو محمد بن حبان التميمى الحافظ إمام عصره صنف تصانيف لم يسبق إلى مثلها ، وكان من أوعية العلم فى اللغة والفقه والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال ، وكان على قضاء سمرقند زمانا مات سنة ٤٥٣

(٦) هو بريد بن أبى مريم مالك السلولى البصرى وثقه ابن معين وأبو زرعة مات سنة ١٤٤

(١) هو سعيد بن أبى أيوب الخزاعى بالولاء . وثقه ابن معين وأبو زرعة مات سنة ١٦١ ، والمعنى أن مالكا على بيانه وجلالة قدره وطول باعه ، دون الليث ، وإلا فمالك معروف قدره ، وعلو منزلته ، ولم يقصد ابن أبى أيوب انتقاصه ولا الحط من شأنه ، رضى الله عنهم أجمعين

(٣) هو عبيد الله بن عبد الكريم المخزومى بالولاء الرازى الحافظ أحد الأعلام والأئمة . قال أحمد : ماجاوز الجسر أحفظ من أبى زرعة . وقال اسحق : كل حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل ، روى أنه يحفظ عشرة آلاف حديث فى القرآن . قال أبو حاتم : ماخلف بعده مثله . مات سنة ٢٦٤

(٤) يحيى بن معين الغطفانى البغدادى الحافظ الامام العلم مات سنة ٢٣٣ بالمدينة وحمل على أعواد النبى صلى الله عليه وسلم ونودى بين يديه : هذا الذى يذب الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٥) يعقوب بن شيبة السدوسى البصرى من كبار علماء الحديث له المسند الكبير ما صنف مسند أحسن منه ولم يتمه وهو مئات من الأجزاء كان يشتغل فى تبييضه عشرات من الوارقين مات سنة ٢٦٢

(٦) محمد بن سعد بن منيع الزهرى بالولاء مؤرخ ثقة من حفاظ الحديث ، كان كاتب الواقدى ، أشهر كتبه الطبقات الذى طبع فى أوربا ، مات سنة ٢٣٠

(٧) هو الامام الكبير محيي الدين النووى من كبار أئمة الشافعية وصاحب التصانيف الكثيرة الجليلة توفى ١٤ رجب سنة ٦٧٦

قصيدة تاريخية خطيرة

أهل غرناطة يستغيثون السلطان بايزيد

في أوائل القرن السابع الهجري ذهبت ريح الموحدين من الأندلس ، ونشأت دولة بني نصر أو بني الأحمر في بقية الأحداث من الدولة الاسلامية العظيمة — الجنوب الغربي من الجزيرة الكبيرة جزيرة الأندلس . وثبت بنو الأحمر على قراع الخطوب ، ونزال الكوارث خمساً وستين ومائتي سنة . ثم ذهبت الصولة ودالت الدولة ، وأناخت الوحشة على المعقل الأخير للحضارة الاسلامية

هذا فجر اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٩٨٧ ، وهذا أبو عبد الله الشقيّ يسير في خمسين فارساً ليسلم مفاتيح الحمراء إلى فرديناند وايزابلا

وكان المسلمون قد استوثقوا لدينهم وأنفسهم وأموالهم ، وأخذوا على الأسبان من الشروط ما شاءوا . وبذل لهم الأسبان من العهود والأيمان ما جعلوه حبالة إلى السيطرة والقتل والسلب والاكراه على التنصر

اشترط المسلمون زهاء ستين شرطاً يكفل لهم الوفاء بها سلامة شاملة ، وطمأنينة عامة . واشترطوا أن يقبل شروطهم زعيم النصرانية بابا رومية

وما هو إلا أن ظفر الأسبان بعدوهم حتى استباحوا نقض العهود ، والاغراق في العدوان والظلم والنهب والقتل والاكراه على التنصر . فلما استيأس المسلمون ثاروا بعدوهم المرة بعد المرة يؤثرون الموت الوحيّ على الموت البطيء ، وما زال بهم القتل والاستعباد والتشريد والنفي حتى جلا آخرهم عن البلاد عام ١٠١٧ من الهجرة

وقد استصرخ مسلمو الأندلس ملوك المسلمين ، فلم يصرخهم أحد إلا خير الدين باشا قائد الأساطيل العثمانية في عهد السلطان سليمان ، فقد أمدهم في إحدى ثوراتهم بجند نصروهم على عدوهم ومكنوا لهم الرحيل ، فحملت السفن منهم سبعين ألفاً إلى أفريقية

وكان المسلمون أرسلوا وفداً يستغيث السلطان بايزيد الثاني العثماني ، وبعثوا بقصيدة بثوابها شكواهم ، وعددوا ما أصابهم في أنفسهم ودينهم . وهي قصيدة طويلة ننشرها اليوم على صفحات الرسالة ، معترفين بالفضل للشيخ الجليل العلامة الشيخ خليل الخالدي الذي كتبت في الرسالة عنه مرتين . جمعنا بالشيخ الكريم أحد المجالس في حلوان شهر رمضان الماضي . فسأله بعض الحاضرين ، وهو يفيض في حديثه ، عن كتاب عن الدافع كتبه أحد الأندلسيين فحدث عنه وقال : وكانوا يسمون الدافع الأنفاض ، وقد قال قائلهم :

وجاءوا بأنفاض عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة

وهذا البيت من قصيدة بعث بها أهل غرناطة إلى السلطان بايزيد . فاستنشدناه ما يحفظ منها فأنشد ثلاثة وثلاثين بيتاً وقال : إن القصيدة طويلة تجاوز مائة بيت ، وإنها عنده ، قد نسخها في مدينة فاس . فسألناه أن يرسلها إلينا حين يعود إلى القدس

وقد أنجز الشيخ حفظه الله وعده ، فأرسل القصيدة لتنشر في مجلة « الرسالة » . ويتبين من القصيدة أنهم استغاثوا السلطان من قبل فكتب إلى الأسبان فلم يأبهوا لما كتب ، وأن ملوك مصر أرسلوا رسلاً فادعى الأسبان أن المسلمين تنصروا مختارين ، وسلكوا في الزور ما نعهده اليوم في السياسة الأوربية

ولسنا ندري ما كان جواب السلطان بايزيد على هذه الدعوة الملهوفة والقصيدة الباكية . فمن عرف شيئاً في هذا فليخبرنا مشكوراً

عبد الوهاب عزام

* * *

القصيدة ومقدمتها

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان أبي يزيد خان العثماني رحمه الله ما نصه بعد سطر الافتتاح

« الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها ، وأعز أنصارها ، وأذل عداتها . حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الكافرين ، كهف الاسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محيي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين ، وسلطان البحرين ، حامي الذمار ، وقامع الكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغياثنا ،

مولانا أبو زيد ، لازال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالى والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل فى الدار الآخرة ، والثناء الجميل والنصر فى هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، مجردة على أعداء الدين من بأسها ماروى صدور السمر والصفاح ، وألسنة السلاح ، سالكة سبيل السابقين ، الفائزين برضى الله وطاعته يوم يقوم الأشهاد

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاى خير خليفة
سلام على مولاى ذى المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه ... وأيده بالنصر فى كل وجهة
سلام على مولاى من دار ملكه ... قسنطينة أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من اهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكا على كل ملة
سلام على القاضى ومن كان مثله ... من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى ... ومن كان ذا رأى من اهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... باندلس بالغرب فى أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم يالها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم الأبلاط قهراً لخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير فى كل ساعة
أدام الإله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا ... وأسكنكم دار الرضى والكرامة
شكونا لكم مولاى ماقد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية
غُدرنا ونُصّرنا وبُدّل ديننا ... ظُلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبى محمد ... نقاتل عباد الصليب بنية
ونلقى أموراً فى الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا القوط من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم ... فنقتتل فيها فرقة بعد فرقة

وفرسانهم تزداد فى كل ساعة ... وفرساننا فى حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا فى بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاءوا بانفاض[1] عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة
وشدوا عليها فى الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلّت لنا الأقوات واشتد حالنا ... أطعناهم بالكره خوف الفضيحة
وخوفا على أبنائنا وبناتنا ... من ان يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا ... من الدجن من أهل البلاد القديمة
ونبقى على آذاننا وصلاتنا ... ولا نترك شيئاً من امر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمناً ... بما شاء من مال الى أرض عُدوة
الى غير ذاك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم ... لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وأبدى لنا كتباً بعهد وموثق ... وقال لنا هذا أمانى وذمتى
فكونوا على أموالكم وديار كم ... كما كنتمُ من قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها ... ونصّرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف ... وخلّطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان فى أمر ديننا ... ففى النار ألقوه بهزؤ وحقدة
ولم يتركوا فينا كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً يخلو به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ففى النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجىء منا لموضع كفرهم ... يعاقبه الأبلاط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ... ويجعله فى السجن فى سوء حالة
وفى رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنْه فى رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه ... فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاءه الموت ولم يحضر الذى ... يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك فى الزبل طريحاً مجندلاً ... كمثل حمار ميّت أو بهيمة
الى غير هذا من أمور كثيرة ... قباح وأفعال غرار ردية
وقد بدلت أسماؤنا وتغيرت ... بغير رضى منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد ... بدين كلاب القوط شر البرية

(١) الأنفاض المدافع

وآها على أسماء حين تبدلت … بأسماء أعلاج من اهل الغباوة
وآها على أبنائنا وبناتنـــــا … يروحون للألباط فى كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية … ولم يقدروا أن يمنعوهم بحيلة
وآها على تلك المساجد حولت … كنائس للـكفار بعد الطهارة
وآها على تلك الصوامع علقت … نواقيسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها … لقد أظلمت بالـكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصليب معاقلا … وقد أمنوا فيها وقوع الاغارة
وصرنا عبيداً لا أسارى فنفتدى … ولا مسلمين نطقهم بالشهادة
فلو أبصرت عيناك ماصار حالنا … إليه لجادت بالدموع الغزيرة
ويا ويلنا يا بؤس ما قد أصابنا … من الضر والبلوى وثوب المذلة
سألناك يا مولاى بالله ربنـــــا … وبالمصطفى المختار خير البرية
وبالسادة الأخيار آل محمد … وأصحابه أكرم بهم من صحابة
وبالسيد العباس عم نبينا … وشيبته البيضاء أفضل شيبة
وبالصالحين العارفين بربهم … وكل ولىّ فاضل ذى كرامة
عسى تنظروا فينا وفيما أصابنا … لعل إلـه العرش يأتى برحمة
فقولك مسموع وأمرك نافذ … وماقلت من شيء يكون بسرعة
ودين النصارى أصله تحت حكمكم … ومن ثم يأتيه إلى كل كورة
فبالله يا مولاى منوا بفضلكم … علينا برأى أو كلام بحجة
فانتم أولات الفضل والمجد والعلا … وغوث عباد الله فى كل آفة
فسل بابهم أعنى المقيم برومة … بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة
وما لهم مالوا علينا بغـدرهم … بغير أذى منا وغير جريمة
وحبسهم المغلوب فى حفظ ديننا … وامن[1] ملوك ذى وفاء وجلة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم … ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعده … فذاك حرام الفعل فى كل ملة
ولا سيما عنـد الملوك فانه … قبيح شنيع لا يجوز بوجهة
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم … فلم يعملوا منـه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة … علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت أرسال مصر إليهم … وما نالهم غدر ولا هتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا … رضينا بدين الـكفر من غير قهرة
وساقوا شهود الزور ممن أطاعهم … ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم … علينا بهذا القول أعظم فرية

(١) لعله أشار بهذا الشطر وبالبيت الذى يليه إلى الأقطاع الـكبير الذى أقطعه فرديناند أبا عبد الله الصغير وبالمحاباة التى قصرها عليه دون سائر قواد المسلمين وجنودهم

ولـكن خوف القتل والحرق ردنا … نقول كما قالوه من غير نيـــة
ودين رسول الله ما زال عندنا … وتوحيدنا لله فى كل لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا … ولا بالذى قالوا من امر الثلاثة
وإن زعموا انا رضينا بدينهم … بغير أذى منهم لنــا ومساءة
فسل انجرا[1] عن أهلها كيف أصبحوا … أســــارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بِلّفيقا[2] عن قضيـة أمرها … لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة[3] بالسيف مزق أهلها … كذا فعلوا أيضاً بأهل البُشُرّة[4]
واندرّش بالنار أحرق أهلها … بجامعهم صاروا جميعاً كفحمة
فهانحن يا مولاى نشكو إليكم … بهذا الذى نلقاه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا … كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً من ارضهم … بأموالنا للغرب دار الأحبـة
فاجلاؤنا خير لنا من مقامنا … على الـكفر فى عز على غير ملة
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم … ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا … ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا … وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمـد الله خير ملوكنا … وعزتكم تعلو على كل عزة
فنســأل مولانا دوام حياتكم … بملك وعز فى سرور ونعمة
وتمدين أوطان ونصر على العدا … وكثرة أجنـاد ومال وثروة
وثم سـلام الله تتلوه رحمة … عليكم مدى الأيام فى كل ساعة

انتهت الرسالة من نسختين بقلم مغربى رأيتهما بعاصمة فاس صانها الله من كل باس .

خليل الخالدى

(١) هـذه قبيلة كبيرة يزيد عددها على مائة ألف تسكن الآن مابين طنجة وسبتة

(٢) وأما بلفيق فهى بلدة أبى البركات البلفيقى من رجال الأندلس المشهورين

(٣) هى بلدة باحواز غرناطة دخلتها جنود فرديناند بأمان ثم فتكوا بأهلها جميعاً والآن يقولون لها منتافيه . وقد رأيت هذه البلدة تقرب من بلدة لوشه التى يقولون الآن عنها لوخه بلد لســـان الدين فانهم يقلبون كل شين خاء فيقولون عن شينيل نهر غرناطة خينيل

(٤) وأما البشرات فهى ناحيـة كبيرة تشتمل على قرى كثيرة فيها مغارات حصينة مررت عليها فى طريقى إلى جبل شلير وهو جبل لا يفارقه الثلج لا فى الشتاء ولا فى الصيف وأما ناحية البشرات فهى من أنزه بقاع الأندلس فيها الجنان الـكثيرة والعيون الغزيرة وأنواع النبات والعقاقير والأفاويه وكنت أشم رائحة قوية حينما أتجول فى أنحائها (الخالدى) .

٣ - قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

لوفن هوك Leeuwenhoek

أول غزاة المكروب

« بائع القماش الهولاندى الساذج الذى ضحك منه أهل بلده فكاتب الجمعية الملكية البريطانية وبها روبرت بويل واسحاق نيوتن فاستمعت له وصفقت خمسين عاماً »

— ٤ —

وكانت تلك الحيوانات الصغيرة فى كل مكان ، حتى فى فم « لوفن هوك » . كتب « لوفن » إلى الجمعية الملكية يقول : « لقد بلغت العام الخمسين من عمرى ومع هذا لى أسنان سليمة سلامة لا تتفق مع هذه السن ، وسبب هذا أنى أدلك أسنانى بالملح كل صباح دلكاً شديداً ، ثم أنظف أضراسى بريشة وأدلكها بثوب دلكاً عنيفاً » . ومع ذلك كانت تتبق بقية من جسم أبيض فيما بين تلك الأسنان . فتراءى للوفن أن يتعرف كنهها فقشط منها بعضها ودافه فى ماء مطر نقى وأخذ منه فى شعرية من الزجاج ونصبها تحت عدسته ، ثم أغلق الباب . وأخذ ينظر فرأى عند بؤرة العدسة مخلوقات جديدة ، فنوع يثب قدُما فى الماء « كـكراكى الأسماك » ، ونوع ثان لا يلبث أن يستقيم فى عومه قليلاً حتى يدور بغتة فينتكس على رأسه انتكاسات رشيقة ، ونوع ثالث كالعصى الملتوية يتحرك فى بطء شديد تكاد تخطئه العين ، إلاّ عين لوفن ، فأخذ يحملق فيها حتى احمرت عيناه ، وحتى رآها تتحرك يقيناً ، وتنبض بالحيـــاة يقيناً . كان فم « لوفن » مليئاً بالمتحركات من شتى الأجناس . وكان به جنس آخر كقضبان الخيزران سهلة التثنى ، تجىء وتروح فى تؤدة الأسقف ووقاره ، وهو على رأس موكبه بين قسيسيه وأحباره ، وجنس خامس — حلزونات كالبريمات نوازع الفلين ، نفخ الله فيها من روحه فجاءت أشد ما تكون سعياً ونشاطاً

لم يقع هذا الرجل الغريب على شىء إلا اتخـذه موضوعاً لتجربته ، ولم يعتق نفسه ، فاتخذ ذاته موضوعاً للتجربة أيضاً . وأتعبه العمل وأجهده طول التحديق إلى تلك الحيوانات التى بأسنانه فطلب الراحة فى التربض تحت الأشجار العالية ، وقد أخذت بقدوم الخريف تتناثر عنها ورقاتها المريضـة الصفراء فتقع من تحتها على سطوح التُـرَع وهى فى سكونها وملاستها كالمرايا الغبراء ، ولـكنه ما لبث أن لَقِى فى طريقه شيخاً هرماً ، فحدثه فكان هذا إيذاناً بذهاب راحته وانتهاء رياضته . كتب « لوفن » إلى الجمعية الملكية عن هذا يقول : « وتحدثت الى هذا الشيخ فألفيته عاش ما خلا من أيامه عيشة قصْدٍ واستقامة ، فالوسكى لم يذقه قط ، والتبغ لم يمس فمه ، والنبيذ ندر شربه إياه . ووقعت عينى على أسنانه فوجدتها مغطاة بالرواسب ، فسألته متى نظفها آخر مرة ، فأجاب إنه لم ينظفها مرة واحدة فى حياته

فما قرع هذا الجواب سمع « لوفن » حتى طار التعب عن عينيه . فقد وقع فى نفسه أن فم هـذا الرجل لا بد أن يكون جنينة مليئة بالحيوانات من كل صنف بهيج وغير بهيج ، وما لبث أن جر الشيخ القذِر التقىّ الى مكتبه . وبالطبع وجد الألوف من تلك الحيوانات الصغيرة فى فمه ، ولكن كان همه أن يخبر الجمعية الملكية أنه وجد فى فمه مخلوقا جديداً ينساب فى التواءاته كالأفعى بين شتى الحيوانات الأخرى ، وأن الماء بأنبوبة الزجاج الشعرية كان يعج به تحت عدسته

ومن الغريب فى «لوفن هوك» أنك مهما تصفحت كتبه ، وهى مئات ، فلن تجـــده يذكر مرة واحدة أن هذه الأحياء الصغيرة تضر بالأنسان . إنه رآها فى ماء الشرب ، ووقع عليها فى فم الأنسان ، ومضت الأعوام فتكشفت له نفس تلك الأحياء فى أمعاء الضفدع وأمعاء الخيل وفى أمعائه هو ، كان يجدها أسراباً أسراباً على حد قوله « كلما اعتراه اسهال » . ومع هذا لم يقل إنها كانت سبباً فى هذا الذى اعتراه . لقد كان محاذراً فى أحكامه ، ولم يكن له ذلك الخيال الذى اعتاد الناس أن يطيروا به الى استنتاجات فطيرة غير ناضجة كالتى يثب إليها أهل هذا العصر

الحاضر من دُرّاس الكروب . ولكم وَدِدْنا لو درس هؤلاء ما كتب « لوفن » ، إذن لتعلموا من حذره الشيء الكثير . فى الحق لقد وصف الواصفون فى نصف القرن السالف آلافاً من المكروبات ، ونسبوا اليها مئات من الأمراض ، فكشف النقد فى الكثرة الكبرى من تلك الحالات أن اجتماع المرض والمكروب فى الجسم إنما كان اتفاقاً عارضاً . كان « لوفن هوك » يخشى دائماً أن يشير إلى الشيء فالشيء ويقول هذا سبب هذا . كان به إيمان فطرى بتعقد الأمور واختلاط الأسباب التى تنتج الحياة وظواهرها ، فكان دائماً محجاما لا يقدم على ربط سبب بظاهره

ومرّت السنون وهو يشتغل بالبزازة فى دكانه الصغير ، أو يقوم بكنس دار البلدية « بدلفت » . وزاد حذراً وزاد شراسة ، وازدادت كذلك الساعات الطويلة التى كان يقضيها فى التحديق فى المئات من مكرسكوباته ، وزاد اكتشافه لكل عجيب غريب . وذات يوم نظر إلى سمكة صغيرة فى أنبوبة من الزجاج وقد علا ذيلُها فلمح فيه لأول مرة أوعية الدم الشعْرية التى تصل مابين الأوردة والشرايين فاستكمل بذلك الدورة الدموية التى اكتشفها « هارفى » من قبله

وكان « لوفن » لا يمتنع عن امتحان الشيء لقداسة أو عاطفة ، أو خشيةَ أن يُسيء إلى الأدب والحرُمات . فاكتشف الخلية المنويّة للذكر من الأنسان — اكتشاف فيه تورّط وفيه احراج ، وفيه جمود وبرود فى سبيل العلم تقشعر منه النفوس ، ولكن « لوفن » كان رجلاً بسيطاً ساذجاً

ودارت الأيام فشاع ذكره فى أوربا ، وجاءه بطرس الأكبر قيصر الروس يقدّم له احترامه ، وسمت اليه ملكة الأنجليز فى بلدته لترى الأعاجيب من خلال عدساته . وأبطل للجمعية الملكية كثيراً من الخزعبلات السائدة ، وكان أشيع أعضائها ذكرا ما خلا « اسحق نيوتن » و « روبرت بويل » . ولم يغير كل ذلك شيئاً من نفسه ؛ ذلك أنه كان من أول الأمر كبير التقدير لها كثير الأعجاب بها . وكانت كبرياؤه لا حد لها ، لا يضارعها إلا اتضاعه كلما فكر فى هذا الكون وخفاياه ، فى هذا السر الهائل المجهول الذى يَلفّه ويلفّ سائر الناس معه . كان يعبد الله ، وكان عبّاداً للحقيقة . قال : « فى اعتزامى ألا أحتفظ بآرائى عناداً وتعصباً ، فأنا أنبذها الى ما يعرضه علىّ غيرى من الآراء ، مادام هذا الغير لا يطلب من عرضها إلا إظهار الحقيقة لعيني ، وأنا أعتنق هذا المعروض الجديد بمقدار ما أستطيع تحقيقه فيه من صواب . كذلك فى اعتزامى أن أستخدم ما حبانى به الله من مواهب قليلة للحيلولة بين الناس وبين خرافات وثنية جاءتهم من الزمن القديم . وفى اعتزامى أن أنهض الى الحق وأن أثبت عليه »

وكان صحيح الجسم صحة خارقة ، فنى الثمانين كان يرفع بيده المكرسكوب ، وهى ترتعد ، إلى زواره لينظروا بها إلى الحيوانات الصغيرة ، أو الى صنوف الأجنة من المحار . وكان مُغرماً بالشراب فى الأمساء ، وأىّ هولاندى ليس به هذا ؟ وكأنما كان المرض لا يمسه إلا فى الأصباح التى تلى تلك الأمساء ، وما كان مرضاً بل ضيقاً فى النفس واعتلالاً فى المزاج . وكان يبغض الأطباء فلا يستنصح منهم أحدا . وأنّى لهم معرفة بأدواء الجسد وعلمهم بتركيبه عشر معشار علمه ؟ ومن أجل هذا كانت له نظريته الخاصة فى تعليل سوء مزاجه — وأية نظرية تلك ! كان يعلم أن بالدم كرات صغيرة مستديرة هو الذى اكتشفها وارتآها أول راء . وهو الذى اكتشف فى ذيل السمكة تلك الشعريات الصغيرة التى تصل ما بين الأوردة والشرايين . فالليالى التى كان يعمرها بالكاس والطاس كانت على زعمه تؤثر فى دمه فتجعله ثخيناً ، فاذا هو جاء يمر بالشعريّات تعذر عليه ذلك . فمن هذا كان اختلال مزاجه فى الصباح . وإذن فدواء هذه الثخانة تخفيفها . وإليك ما كتب به الى الجمعية الملكية :

« فأنا إذا أكلت ذات مساء فأثقلت شربت فى الصباح عدداً كبيراً من فناجيل القهوة ، وهى على أسخن ما أحتمل حتى أتصبب عرقاً ، فاذا لم يَشْفنى ذلك فكل مابدكّان الصيدلانى لا يشفى . وهذا دوائى من أعوام كلما حُممْت »

وهداه شرب القهوة إلى حقيقة جديدة عن حيواناته الصغيرة . ياله من رجل ! ما كان يفعل شيئاً حتى يهديه هذا الشيء إلى جديد فى الطبيعة . فقد كان يعيش بسمعه وبصره وحسّه وفكره فى دُنَى تلك الحيوانات التى كان يسترق منها النظرات من خلال تلك العدسات . لقد كان كالطفل إذ يستمع لحكاية البط والغراب وهو مستغرق عما حوله ، لاترى منه إلا شفتين منفرجتين وعينين واسعتين من شدة الدهشة والأعجاب . وكان

كالطفل كذلك فى إعادة ما قرأ من أقاصيص الطبيعة المرة بعد المرة ، حتى لتجد على صفحاتها من إبهامه بصمات ، وفى أركانها من فعله ثنيات تهديه إذا هو استراح فعاد ليبدأ من حيث انتهى . من ذلك أنه بعد سنوات من اكتشافه المكروب فى فمه جلس ذات صباح الى شراب القهوة يستشفى به ، فبينا هو فى عرقه الصبيب خطر له أن يعود فينظر الى مكروب أسنانه من جديد . . . ما هذا ! أين ذهبت حيوانات أسنانى فانى لا أرى واحدة تتحرك بالحياة ! أو كأنى أرى الألوف منها ولكنها أجساد هامدة ، إلا واحدة أو اثنتين تدبان على ضعف كأنما مسهما المرض ! ثم صاح يستنجد بالأحبار والقديسين ألا يجيئه فى تلك الساعة لورد من لوردات الجمعية الملكية يطلب اليه رؤية تلك المكروبات فى فمه فلا يجدها فيكذبه فيما كتب عنها

ولكن صبراً . إنه كان يشرب القهوة . وكانت ساخنة جداً حتى كادت تتنفط منها شفتاه . وهو إنما نظر الى المكروبات فى الرواسب التى بين أسنانه الأمامية بعد شربه هذه القهوة الساخنة مباشرة

وما لبث أن استعان بمرآة مكبرة وأخذ يقشط ما بين أسنانه الخلفية ، ثم ينظر . . . : ما كذب المنظار وما أخطأ لوفن . قال : وما لبثت أن دهشت للكثرة التى وجدتها من تلك الحيوانات الحية فى القليل التافه من تلك القشاطة ، كثرة لا يؤمن بها إلا من رأى » . وبعد هذا أخذ يجرى تجارب صغيرة فى أنابيب الزجاج ، فسخن فيها الماء بما يأهله من تلك الأحياء الى درجة فويق التى يحتملها المرء فى حمامه ، وفى لحظة فقدت الحيوانات روحاتها وجيئتها . وبرد الماء ومع هذا لم تعد اليها الحياة . إذن فالقهوة الساخنة هى التى قتلت تلك الحيوانات فى أسنانه الأمامية

وأعاد النظر الى هذه الحيوانات فى غبطة وسرور ، ولكن أساءه وأهمه أنه لم يتبين لهذا الحيوانات رأساً ولا ذيلاً ، فانها كانت تسير فى تلويها مسرعة فى اتجاه ، ثم لا تلبث أن تكر راجعة بنفس السرعة فى عكس الاتجاه دون أن تنعطف أو تدور لها رأس على عقب ، ولكن لابد أن يكون لها ذيل ! لابد أن يكون لها رأس ! ولابد أن تكون لها أكباد وأمخاخ وأوعية دموية كذلك ! وعاد بذاكرته إلى الوراء أربعين عاماً ، إلى البراغيث وديدان الجبن كيف كانت تراها عينه مخلوقات بسيطة الصنع مجملة التركيب ، فاذا بها تتراءى تحت عدسته معقدة التركيب مفصلة الصنع تامة تخلق الأنسان نفسه . فطمع أن ينكشف له من هذه المكروبات ما تكشف من هذه الديدان . ولكن عبثاً حدق فى أقوى عدساته ، فقد ظلت هذه المكروبات تظهر فى بصره عصياً أو كرات أو حلزونات بسيطة لا تفصيل فيها ولا تعقيد . وأخيراً اكتفى بأن حسب للجمعية الملكية قطر الوعاء الدموى بتلك المكروبات لو أنه كان ، ولم يقل قط إنه رأى تلك الأوعية ، وإنما أراد أن يتسلى بتخيله أو ليراه من أعضاء الجمعية يتراجعون دهشة من صفر الأرقام التى أسفرت عنها حسبته

وإذا كان « لوفن هوك » قد فاته أن يرى الجراثيم التى عنها تنشأ أمراض الانسان ، وإذا كان خياله قد قصر عن إدراك ما تأتيه حيواناته اللعينة من قتل وإجرام ، فلم يفته أن يدرك أن هذه الحيوانات التى تفلت العين قد تقتل وقد تأكل حيوانات تجل عنها أضعافاً كثيرة . فذات يوم كان يتلهى ببعض حيوانات الماء الصدفية كبلح البحر[1] وأم الخلول جرفها من قيعان الترع ، فوجد بداخل الأم الواحدة آلافاً من الأجنة ، فهالته كثرتها وتساءل كيف لا تشرق مجارى الماء بهذا العدد العديد من الأحياء . وخال أن يربى تلك الأجنة فى زجاجة بها ماء أخذه من تلك الترع ، وأخذ كل يوم يعبث بالماء وقد تلزج كالمخاط بما فيه من أجنة ، وكان أن نظر إليها بعدسته يحسب أنها كبرت ، فأفزعه أن وجد اللحم الطرى يتلاشى بين أصدافه ، ذلك لأن آلافاً من المكروبات الدقيقة استطعمته فالتهمته بشراهة أى شراهة

« تعالى الله ! حى يعيش على حى ، وحياة تستمد البقاء من فناء حياة ! تلك لا محالة قسوة كبيرة ، ولكنها مشيئة الله . ولا شك أن الخير كل الخير فيها ، فلولا أن أكل المكروب صغار هذا المحار ، وكل أم تلد ألفاً فى المرة الواحدة ، لانسدت به القنوات . » هكذا فكر لوفن ، وبهذا القنوت أسلم لقضاء ربه . كان يتقبل كل شىء ويرضى عن كل ما يجد ، فلم يكن بعد قد جاء العصر الذى تهجم فيه البحاث على المقام الاسمى ورفعوا أيديهم إلى السماء يتسخطون ويتهددون على ما بالطبيعة من قسوة لا معنى لها على ابنها الانسان

(١) نوع من المحار كأم الخلول

وبلغت سنه الثمانين وفاتها ، وتخلخلت أسنانه بالرغم من قوة جسمه ، وكل سن للتخلخل ولو أمهلتها السنون حيناً . وجاء شتاء أيامه وخيّم بظله وقرّه فلم يَشك شيئاً ، بل انتزع سناً عتيقة من فمه وصوّب إليها العدسة يمتحن تلك المخلوقات الضئيلة فى الجذر الخاوى من السن مرة أخرى . ولم لا يفعل ؟ فلعله يجد تفصيلاً جديداً فاته فى سائر تلك المرات العديدة . وجاءته رفقة من صحابه وقد بلغ الخامسة والثمانين تسأله أن يترفق بنفسه ويدع البحث والدرس ، فقارب ما بين حاجبيه وأوسع ما بين جفنيه ، ولم يكن فارق البريق عينيه ، وقال لهم : « إن الثمرة التى تنضج فى الخريف تطول سائر الثمر عمراً » . سمى الخامسة والثمانين خريفاً !

وكان كأرباب المعارض يحب أن يسمع إعجاب الناس بما يعرض ان حضروا ، أو يقرأ لغيّابهم إذا هو كتب لهم تلك الكتب الثرثارة المتفككة الطويلة . ولا تنس انه لم يكن يعرض بضاعته إلا على الفلاسفة والمتفلسفين وأحباب العلم . وكان لا يحسن التدريس إذا هو حاوله . كتب إلى الفيلسوف الشهير ليبنتز Leibniz يقول : « أنا لم أعلم أحداً ، لأنى لو علمت واحداً وجب علىّ تعليم آخرين ، وإذن أعبّد نفسى عبودية لا تنقضى ، وأنا أحب أن أكون سيداً حرّاً »

فأجابه ليبنتز يقول : « . . ولكنك يا رجل إذا لم تعلم الشباب صناعة العدس وطرق البحث والنظر زال كل هذا عن وجه الأرض بزوالك » . فكتب صاحبنا الهولاندى باستقلاله المعهود يقول : « لقد أعجب أساتذة « ليدن » Leyden وطلبتها باكتشافاتى مرة فى أيام سالفة بعيدة فاستأجروا من نحاتى العدسات وصاقليها ثلاثة جاءوا يعلمونهم صناعتها ، فعلى أى نتيجة خرجوا ؟ لاشىء بقدر ما أرى ، لأن جل الدروس أو كلها كانت تعطى لاكتساب المال ببيع العلم أو إظهاراً للعلم بغية احترام الناس وإعجاب الدنيا ، وتلك نوازع لا تمت بسبب إلى اكتشاف خبايا الطبيعة المحجوبة عن أبصارنا ، فهذه دراسات قد لا يصلح لها من الألف واحد ، لأن الزمن الكثير يضيع فيها ، ولأن المال الكثير يضيع فيها ، ولأنها تستغرق من صاحبها فكره كله وحسه أجمع لكى يخرج منها على شىء ....»

هذا أول رجال المكروب وكاشفيه . وفى عام ١٧٢٣ ، وقد بلغ الحادية والتسعين استدعى صديقه « هوجفليت » وهو على سرير الفناء . فلم يستطع رفع يده . وملأ الدمع جفنيه وتقاربا ليلتحما بلحام الموت . فغمغم إليه : « صديقى هوجفليت ، رجائى إليك أن تترجم الكتابين اللذين على المنضدة إلى اللاتينية . . . . ابعث بهما إلى لندن . . . . إلى الجمعية الملكية . . . . »

وبذلك برّ بوعده للجمعية الذى أبرمه من خمسين سنة خلت أنْ يكتب لها إلى آخر رمق . وبعث « هوجفليت » الكتابين وكتب معهما يقول : « أسيادى العلماء ، أبعث لكم آخر هدية من صديق المحتضر ، راجياً أن تحظى آخر كلمة له بالرضاء منكم »

وهكذا ذهب أول البحاث فى عالم الجرثوم . وستقرأون عن اسپالترانى Spallangani وهو أنبه منه ، وعن بستور Pastcur وله أضعاف ما لصاحبنا من خيال ، وعن روبرت كوخ Robert koch وقد قام بأعمال أسرع ثمرة من أعماله فى تخفيف ويلات المكروب عن الانسان ، وعن آخرين لهم اليوم كما لهؤلاء صيت أبعد وذكر أشيع ، ولكن صدقونى لم يكن بين هؤلاء وهؤلاء من كان يطاول فى الأمانة ، ولا فى الدقة ، ولا فى الحكم على الأمور ، هذا القماش الهولاندى البسيط

أحمد زكى

١٥ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

- مهما يكن ، فأنت تستطيع أن تحكم فيما إذا كان ينبغى أو لا ينبغى لمن لديه المعرفة أن يكون قادراً على تعليل معرفته

- لا شك أن ذلك حتم عليه

ولكن هل تظن أن كل انسان قادر على تعليل هذه الموضوعات نفسها التى نتحدث عنها الآن ؟

ليتهم يستطيعون ياسقراط ! ولكنى أخشى ألا يكون ثمت من يستطيع فى مثل هذه الساعة من الغد [١] أن يقدم تعليلاً جديراً بأن يؤخذ عنه

إذن فليس من رأيك يا سمياس أن كل الناس يعلمون هذه الأشياء ؟

- يقيناً أنهم لا يعلمون

- إذن فهم آخذون فى تذكر ماقد كانوا يعلمونه من قبل

- يقيناً

ولكن متى كسبت أرواحنا هذه المعرفة ؟ - لم يكن ذلك بعد أن ولدنا بَشَراً ؟

- لا ، ولا ريب

- وإذن فقبل ذلك ؟

- نعم

- إذن يا سمياس ، لا بد أن أرواحنا كانت موجودة قبل أن تُصَوَّرَ فى هيئة البشر [٢] ، ولا بد أن قد كان لديها ذكاء لما كانت بغير أبدان ؟

- حقاً يا سقراط ، مالم تفرض أن هذه الآراء قد أوتيتنا فى ساعة الميلاد ، لأنه لم يبق إلا تلك اللحظة وحدها [١]

- نعم ياصديقى ، ولكن متى افتقدناها ؟ فهى لا تكون لدينا عندما نولد - وقد سلمنا بهذا . هل افتقدناها فى اللحظة التى فيها أخذناها ، أم فى وقت آخر غير هذا ؟ [٢]

- لا يا سقراط ، لقد أدركت أنى إنما كنت أنطق هراء لا أعيه

- إذن ، أفلا يجوز لنا يا سمياس أن نقول ما نردده دائماً ، وهو إذا كان ثمت جمال مطلق ، وخير مطلق ، وسائر الجواهر التى اكتشفنا الآن أنها سبقتنا فى الوجود ، وكنا نقيس اليها كل أحاسيسنا ونقارنها بها - زاعمين أن قد كان لها وجود سابق ، فان لم يكن ، ذهبت كل قوة فى قولنا . فليس من سبيل إلى الشك بأنه إذا كان لهذه المُثُل المطلقة وجود قبل أن نولد ، فلا بد أن أرواحنا كانت كذلك موجودة قبل ميلادنا ، فان لم تكن المُثُل موجودة ، لم تكن الأرواح موجودة كذلك

- نعم يا سقراط ، إنى مقتنع بأن لوجود الروح قبل الميلاد هذه الضرورة نفسها ، وأنت إنما تتحدث من الروح عن كنهها : فقد انتهى بنا التدليل الى نتيجة يسرنى أنها تتفق مع ما أرتئيه . فلست أرى شيئاً يبلغ فى بداهته مبلغ قولنا إن الجمال ، والخير ، وسائر الأفكار التى كنت تتحدث عنها الآن تواً ، لها وجود غاية فى الحق والتجريد ، وإنى لمقتنع بالدليل

- حسناً ، ولكن هل اقتنع سيبيس اقتناعك هذا ؟ لأننى لابد أن أقنعه كذلك

قال سمياس - أظن سيبيس مقتنعاً ؟ فانى أحسبه قد آمن بوجود الروح قبل الميلاد ، على الرغم من أنه أبعد الكائنات عن التصديق . ولكن دليلاً لم يقم بعد على استمرار وجود الروح بعد الموت ، بحيث يقنعنى أنا ، فلا أستطيع أن أتخلص من شعور الدهماء الذى كان يشير اليه سيبيس - ذلك أن الشعور بأنه إذا

(١) يقصد أن سقراط فى مثل هذه الساعة من الغد سيكون قد وافته منيته ، وليس سوى سقراط من يستطيع أن يعلل المعرفة

(٢) مادمنا قد كسبنا المعرفة قبل الميلاد ، فلابد أن أرواحنا كانت موجودة قبل اتصالها بأجسادنا ، وكان لديها من قوة الذكاء ما تستطيع به تحصيل هذه المعرفة

(١) أما أن نكون قد حصلنا المعرفة قبل الميلاد ، أو فى ساعة الميلاد نفسها ، أو بعد الميلاد . وقد أقيم فيما سبق الدليل على بطلان الفرض الثالث فلم يبق الا افتراض أحد الوجهين الأولين

(٢) يفند سقراط الغرض بأننا قد نكون أوتينا المعرفة عند ساعة الميلاد نفسها ، لأنه لو كان الأمر كذلك ، فمتى افتقدناها ؟ لقد سلمنا فيما سبق أن حواسنا تأخذ منذ ساعة الميلاد فى تذكر ما قد نسيته ، فهل افتقدت الروح المعرفة فى نفس اللحظة التى أوتيتها فيها ؟ هذا قول لا يستقيم مع العقل ، ولذا لم يبق الا فرض واحد ، هو أن الروح قد كسبت المعرفة قبل الميلاد ، وهو ما أراد أن يدلل عليه سقراط

مات الانسان ، فقد تتبعثر الروح ، وقد يكون ذلك نهايتها ، فلو سلمنا بأنها قد تتولد وتنشأ فى مكان غير هذا ، وقد تكون موجودة قبل حلولها فى الجسم البشرى ، فماذا يمنع أن تبلى وتفنى بعد أن حلت فيه ثم خرجت منه ثانياً ؟

فقال سيبيس — هذا جد صحيح يا سمياس ، أما ان أرواحنا كانت موجودة قبل أن نولد ، فهو الشطر الأول من الحديث ، ويظهر أن قد قام الدليل عليه ، وأما أن الروح ستبقى بعد الموت ، كما كانت قبل الميلاد ، فهو الشطر الآخر ، الذى لا يزال يعوزه الدليل ، ولابد له من التأييد

قال سقراط — أى سمياس وسيبيس ! لو أنكما أضفتما التدليلين أحدهما الى الآخر — أعنى هذا وما سبقه ، الذى سلمنا فيه بأن كل شىء حى قد ولد من الميت ، لرأيتما أنا قد فرغنا من اقامة هذا الدليل ، لأنه لو كانت الروح موجودة قبل الميلاد ، وأنها إذ تجىء الى الحياة وإذ تولد ، لا تكون ولادتها إلا من الموت ومن يعالج الموت ، أفلا يجب عليها بعد الولادة أن تستمر فى وجودها مادام لابد لها أن تولد مرة أخرى ؟ لاريب فى أنا قد فرغنا من إقامة البرهان الذى ترجوان ، ولكنى مع ذلك ، أحسبك أنت وسمياس، لاترغبان فى أن تخبُرا هذا الدليل أكثر من ذلك ، فقد استولى عليكما ما يستولى على الأطفال من فزع ، خشية أن يذرو الهواء الروحَ حقيقة ، ويبعثرها عند فراقها الجسد ، وبخاصة إذا كتب لانسان أن يموت فى جو عاصف ، ولم يقدر له الموت حيث السماء ساكنة

فأجاب سيبيس باسما — إذن يا سقراط ، فواجبك أن تنفض عنا خوفنا بالدليل — ومع ذلك فليست هى مخاوفنا ، إن توخيت الدقة فى القول ، ولكن هنالك فى طويتنا ، طفل ينظر الى الموت ، كأنه ضرب من الغول ، فلا بد أن نحمله كذلك على ألا يفزع إذا ما انفرد وإياه فى الظلام

قال سقراط — ردِّد فى كل يوم صوت الســـاحر ، الى أن تطرد بالسحر ذلك الغول

— وأين عسانا أن نجد ســاحراً حاذقاً يقينا مخاوفنا بعد ذهابك يا سقراط

فأجاب — إن هِلاّس ، لمكان فسيح يا سيبيس ، وفيه كثير من طيبى الرجال ، وهناك غير قليل من القبائل المتبربرة ، فابحث عنه فى طول البلاد وعرضها ، بين هؤلاء جميعاً ، ولا تدخر فى البحث جهداً ولا مالاً ، فليس من سبيل أفضل من استخدامك المال ، ولا يفتك أن تبحث عنه كذلك بين أنفسكم فوجوده هاهنا أرجح منه فى أى مكان آخر

فأجاب سيبيس — لن نتردد فى القيام بهذا البحث ، ولنعد الآن ، إذا شئت ، فى الحوار إلى النقطة التى استطردنا منها

فأجاب ســقراط — طبعاً ، وماذا أريد غير هذا ؟ فقال : حسناً جداً

قال سقراط — أفلا ينبغى أن نسائل أنفسنا سؤالاً كهذا : — ما هو الشىء الذى تظنه عرضة للبعثرة ، ونحن عليه حريصون ؟ ثم ما هو الشىء الذى لا نحرص عليه ؟ وبعدئذ نستطيع أن نمضى فى البحث عما إذا كان ذلك الذى تمتد اليه يد البعثرة ، من طبيعة الروح أم لا — فعلى ذلك سنقيم ما نكنُّ لأرواحنا من آمال ومخاوف

فقال — هذا صحيح

— قد نفرض أن الشىء المركّب ، أو الذى يتكون من أجزاء ، أنه بطبيعته يمكن أن يتحلل ، كما أمكن له أن يتركب ، أما ذلك الذى لم يتركب من أجزاء ، فيلزم أن يكون وحده غير قابل للتحلل ، إذا كان ثمة شىء كهذا

فقال سيبيس — نعم فهذا ما قد أتصوره

— وقد يزعم أحد أن غير المركب ، يظل كما هو ، ولا يخضع للتغير ، بينما يكون المركب دائم التغير ، فلا يظل أبداً كما هو ؟

فقال — إنى أظن ذلك أيضاً

(يتبع) زكى نجيب محمود

١٣ - بين القاهرة وطوس

من سلطان آباد إلى بغداد

للدكتور عبد الوهاب عزام

سلطان آباد حاضرة ولاية فى إيران تسمى العراق ، وهى فى الجنوب الغربى من سهل فراهان ، بناها منذ مائة وثلاثين سنة يوسف خان الكرجى وجعلها مربعة الشكل ، وسوّرها وحصنها . وولاية العراق هذه خصبة كثيرة الزرع ، فيها زهاء ٦٨٠ قرية ، وسجاجيدها مشهورة

وعلى مقربة من هذه المدينة كانت مدينة الكرج ، فى الأقليم الذى كان يعرف باسم كرج أبى دلف ، وقد ذكره الشعراء فى مدائحهم

دخلنا المدينة ليلا فسرنا قليلاً فانتهينا إلى ميدان فسيح فيه حديقة تمتد منه أربعة شوارع واسعة . وهذا نظام جديد اتخذ لاصلاح المدن الايرانية فى السنوات الأخيرة

وقف بنا السائق على فندق (مهما نخانه) فى هذا الميدان فدخلنا إلى فناء واسع للسيارات وصعدنا فى سلم إلى حجرات على مقربة منها منتدى (قهوة) فلم نرض هذه المجاورة ، فنزلنا إلى فندق آخر بجانبه ، ليس فى المدينة سواهما . فاتخذنا حجرة لا بأس بها فى مثل هذه المدينة ، واسترحنا وطعمنا قليلاً ثم خرجنا نجول فى البلد فلم نر شيئاً أكثر مما أحاطت به النظرة الأولى ، ورأينا المدينة على صغرها وسذاجتها نظيفة جميلة

وبرحنا البلدة والساعة ثمان وأربعون دقيقة من صباح الثلاثاء رابع عشر رجب (٢٣ أكتوبر) مسرعين صوب همذان نود أن نبلغ بأية وسيلة بغداد يوم الأربعاء لندرك قافلة السيارات التى تبرحها إلى دمشق صباح الخميس . بلغنا نخر آباد والساعة تسع . وقد استلفتتنا كثرة العمران والزروع على الطريق كما قلت من قبل ، ووقفنا والساعة عشر على ضيعة اسمها زنكنه معروفة بجودة عسلها فأكلنا ونحن نقول إن لله دواء من العسل (مستعيذين من المثل القديم : إن لله جنوداً منها العسل) . ثم وقفنا على ملايير (دولت آباد) والساعة إحدى عشرة فطلبت جوازات السفر للاطلاع عليها . والمسافة بين سلطان آباد ودولت آباد ١٠٠ كيلو

وواصلنا السير تلقاء الغرب والشمال حتى بلغنا همذان والساعة واحدة بعد الظهر ، فسرنا فى شارعها الكبير وجددنا العهد بمرقد الفيلسوف ابن سينا ، ثم أوينا إلى فندق يقوم عليه جماعة من الأرمن ، والأرمن فى إيران قَوَمة الفنادق ، تلقاهم فى كل مدينة وقرية ، وما نزلنا فندقاً أو مطعماً على طريقنا من طهران إلى حدود العراق إلا عرفنا صاحبه أرمنياً

وأعجلنا السفر عن الاقامة فى همذان يوماً ، فبرحناها بعد ساعتين سائرين شطر الجنوب للمبيت فى كرمانشاهان ، ونحن الآن على طريقنا التى سلكناها من قبل إلى طهران فلا أعيد وصفها هنا . لما شرعنا نفرع الجبال جنوبى همذان أصاب مِصْدم السيارة خلل ، فسقطت لوحة صغيرة كتب عليها جشن فردوسى «عيد الفردوسى» وقد علق مثلها على كل سيارة أعدت للسفر فى حفلات الفردوسى ، فوقفنا وبحث السائق فوجدها وفك المصدم فربطه خلف السيارة . وقد أدت هذه الحادثة الصغيرة إلى أن تأخرنا عن بلوغ بغداد يوم الأربعاء ففاتتنا قافلة الخميس ، كما يأتى . واجتزنا جبال أسد آباد وبلغنا كنكادر والساعة خمس وربع من المساء ، وقد ذكرت هذه البلدة فى طريقى إلى طهران . أزيد هنا أنا نزلنا فاسترحنا وشربنا الشاى وأكلنا البطيخ ، وهو فى إيران كثير لا يعدمه السائر حيثما سار ، وخرجنا نمشى على الطريق ننتظر أن يعد السائق سيارته فاذا جماعة جالسون فى عريش على جانب الجادة ، فتقدم كبيرهم نحيانا وقال إن فى البلد آثاراً قديمة . أتريدون أن تروها ؟ . وعرفنا حينئذ أنه حاكم البلد فسرنا لنرى الآثار وصحبنا الحاكم وجماعة من الموظفين فرأينا بلداً صغيراً فقيراً فى وسطه أحجار ضخام وقطع من أعمدة كبيرة اختلطت بالدور ، فقيل هذا أثر معبد قديم . واخترقنا بعض الدور وسرنا بضع دقائق فرأينا أحجاراً أخرى قيل لنا إنها من آثار المعبد نفسه . وكان معبداً للآلهة (أناهيتا) من آلهة الفرس القدماء بناه لها الاشكانيون ، وكان أيام الفتح العربى مأوى اللصوص وقطاع الطريق فمن أجل هذا سموه قصر اللصوص

قال ياقوت فى المعجم : « قال صاحب الفتوح لما فتحت نهاوند سار جيش من جيوش المسلمين إلى همذان فنزلوا كنكوَر فسرقت دواب من دواب المسلمين فسمى يومئذ قصر اللصوص وبقى اسمه إلى الآن ... » وقال مسعر بن مهلهل : « قصر اللصوص بناؤه عجيب جداً . وذلك أنه على دكة من حجر ارتفاعها عن وجه

الأرض نحو عشرين ذراعاً فيه إيوانات وجواسق وخزائن تتحير في بنائه وحسن نقوشه الأبصار . وكان هذا القصر معقل إبروز ومسكنه ومتنزهه لكثرة صيده وعذوبة مائه ، وحسن مروجه وصحاريه »

تركنا كنكاور والساعة ست ، فما فارقنا ضوء النهار حتى نشر على الأرجاء بدر التمام أشعته ، فسرنا في جبال وسهول حتى أشرف على الجادة جبل بيستون الشاهق وقد ذكرته من قبل وذكرت قصة فرهاد وشيرين التي لا يزال صداها طائراً في أرجائه

ولما لاحت ذروة الجبل في ضوء القمر قلت : بيستون ! ثم أنشدت :

لعل شيرين نصيب خسرو شد سنگ بيهوده مى كند فرهاد

« صار لعل شيرين نصيب خسرو ، وعبثاً يقطع فرهاد الحجر » فأنشد السائق :

به بيستون كه رسيدم گرفت بارانم

أگر غلط نكنم آب چشم فرهادست

« لما بلغتُ بيستون تساقط عليّ المطر ، فان صدق ظني فتلك دموع فرهاد . » ثم قال السائق أتعرف قصة شيرين وفرهاد ؟ فأحببت أن أسمعها منه ، فقلت ما القصة ؟ قال : « كان فرهاد راعياً لبرويز فرأى يوماً شيرين امرأة برويز فهام بها حباً . وكان يظنها إحدى إماء الملك . ومرضت شيرين يوماً فقال الملك لفرهاد إن شئت أن أمنحك شيرين فانحت في الجبل قناة يسيل فيها اللبن من المرعى إلى القصر ، فشق في الحجر قناة طولها فراسخ . فلما أبلت شيرين قال الملك لفرهاد بقي أن تبني لي قصراً عظيماً . فنحت الأحجار وبنى القصر . فلما خشى الملك أن يستنجزه فرهاد وعده قال لمشيريه كيف الخلاص من فرهاد ؟ فتطوعت امرأة عجوز بالحيلة وذهبت إلى فرهاد نائحة لاطمة . قال : ما خطبك ؟ قالت : ماتت شيرين . فغشى عليه ومات لساعته ، وخلصت شيرين لبرويز . »

والقصة ذائعة في الأدب الفارسي ، وقد نظمت مراراً وبلغ بها الشعراء آلاف الأبيات . فلما فرغ السائق من قصصه قلت : أنستطيع أن نرى أثر فرهاد في هذا الجبل ؟ قال إن عاد ، ولا يرى بالليل

بلغنا كرمانشاهان والساعة ثمان بعد أن قطعنا إليها من همذان ١٩٠ كيلاً . وأوينا إلى فندق اسمه « مهمانخانه بزرك » أي الفندق الكبير . وهو فندق نظيف حسن النظام . واستأذن منا سائق السيارة أن يتأخر قليلاً غداً ريثما يصلح سيارته . ثم انصرف

وأصبحنا ننتظر السائق فطال بنا الانتظار فذهبنا نمشي في المدينة ، ثم ذهبنا إلى دار البريد فأبرقنا إلى وزير المعارف لنشكر له ما لقينا من حفاوة قبل أن نجتاز حدود إيران . ورجعنا إلى الفندق فلم نجد السائق ، وذهبنا نفتش عنه في الخانات حتى عثرنا عليه مُكباً هو وبعض الصناع على إصلاح السيارة . ولم نستطع مغادرة كرمانشاهان إلا وقت الظهر . فأيقنا أن سفرنا غداً إلى دمشق عسير أو محال . وجدّ بنا السير زهاء ساعتين فبلغنا شاه آباد ، وقد ذكرتها من قبل ، فنزلنا في فندق صغير فاسترحنا وطعمنا ، ونشط أصحاب الفندق من الأرمن في خدمتنا فاستأنفنا السير بعد ساعة ومررنا بكرند وكده باطاق ، وسربل ذهاب حتى بلغنا قصر شيرين والساعة خمس فتوقفنا هناك عشر دقائق . ثم تركناها نؤم حدود العراق

دخلنا حدود العراق والساعة ست ، وقد غربت الشمس فلقينا الموظفون مرحبين ويسروا لنا السفر العاجل فسرنا إلى خانقين فعرجنا على دار السيد عبد القادر صالح معاون الجمارك لنسلم ونشكر له ضيافته حين مررنا بخانقين المرة الأولى

توجهنا إلى بغداد والساعة سبع من المساء ، وأمامنا صحراء مشتبهة الأعلام ، طامسة المناهج ، ولكن مهارة السائق ، وعلامات الطريق يسرت لنا بلوغ بعقوبة والساعة تسع ، حين بلغ منا التعب مبلغه . وقفنا على منتدى في الطريق ، ونزلنا فاذا صورة أم كلثوم في صدر المكان . ولما عرف صاحب المنتدى أننا مصريون أسرع فأسمعنا غناءها . فشعرنا ونحن في العراق أن مصر قريب

ثم سرنا من بعقوبة فأدركنا شاب ينادي أن الطريق غير بينة فاحملوني لأدلكم . قلنا لا حاجة إليك . وأدركنا فارسان من العسس فقالا أمامكم صحراء لا تهتدون فيها إلى طريقكم . نخير لكم أن تبيتوا هنا ، وهنا فندق نظيف . وإن شئتم فكلموا رئيس الشرطة ليرسل معكم دليلاً . وهذا الشاب إن حملتموه معكم لا يستطيع أن يهديكم الطريق . فأقسم الشاب أنه بها جد خبير ، وأنه هدى من قبل كثيراً من المسافرين . فارتكبنا أهون الشرين وحملنا هذا الدليل معنا . ولم يكن له مكان في السيارة فركب على الرفرف

ضرورة الوحدة الأدبية

بين مصر والسودان

بقلم التيجانى يوسف بشير

لن يكون مثل الأدب يصوغ الأمم على أسلوب واحد ، ويصنع منها عقليةً واحدة ، ويقيم أساس وحدتها على الروح ، وبناء مجتمعها على العاطفة ، ودعامة ألفتها على الجمال ، وقاعدة إخائها على الصدق ، وصرح كيانها على يقظة الشعور ، فلا يتزلزل ولا يضطرب

ولن يكون مثل الأدب يوحد بين مشاعر الأمم ، ويعين على توحيد المنافع ، ويحقق من حلم الوحدة بما فيه من صور الفكر وجمال الفنون . ولا يمكن لها من ذلك إلا أن تعنى به فتوحد من الأساليب ، وتوافق بين الانتاج ، وتقارب بين الأفكار ووجهة النظر الى الكون والحياة . فمركز الأدب فى وحدة الأمم مركز الفكرة فى خلق الأدب ، تؤسسه على القوة ، وتبعثه على الجمال ، وتنهضه على العاطفة ، فيكسب من دقائقها فى الصياغة والتعبير ما يأخذ على قاعدته الأمم فيهبها من دقائقه هو ما تأخذ به أفرادها على وحدة الشعور وجماعاتها على توحيد المصلحة . ولا أنفع لمصر ولا أجدى للسودان فى سبيل وحدتهما الكبرى من أن يعنى كلاهما بتقريب الفكر من بعضه ، وتوجيهه بعد ذلك الى منحى واحد ، فتتحقق الوحدة فى كل شىء ، ويستقيم لهما التواشج ويتم الامتزاج

فالأدب كان وما يزال أصدق ما يحمل الى الفرد خصائص الفرد ، وأقوى ما يعكس على الأمة مميزات الأمة ، فيجمع بينهما فى المشابه ، ويوفق بينهما فى الميول . وهو بما يدفع من جمال ويصور من لذة ، وينقل من مثل للاجتماع ، وفروض للانسانية ، وقوالب للحياة ، إنما يقتضى بما فيه من قوة الايحاء أن يوحد من نظام الحياة فى الشكل كما وحد بينه فى الدخائل . وما فرضت أمة أدبها على أخرى إلا كان معنى ذلك أنها تفرض عليها النظام الذى تسير عليه ، وتعين لها الحياة التى تؤمن بها ، والغرض الذى ترمى اليه . فاذا جاءت مقاييس الأدب عندها بمقدار واحد جاءت على وفق ذلك مصاير السياسة وأقيسة الحكم . وإن أوربا الآن لتبلغ بأدبها فى الشرق ما جعل كثيراً من خصائص الحياة الغربيـة موزعة عليه بأوفى قسط وأوفره . وما كانت لتبلغ هذا المبلغ إلا بما يقوم به أدبها من بث صور الحياة العقلية فى العالم . وعلى قدر ما فرضت أدبها على الشرق فرضت سيادتها عليه ، وعلى قدر ما سنت له من أقيسة أدبها ومعايير الجمال فيه ، كانت سياسة الحكم تنصب على مقاييس بقدرها كثرة وتمداداً

وإن مصر لتتمتع منذ قرون بعيدة بأدب فيه من خصائص « المصرى » وملازمات حياته ما يكفل لها أن تنتظم الشرق فى وحدة أدبية تامة متى كان لها أن تعنى بذلك عناية خاصـة ، وأن تعمل فى سبيله ، فتقيم له المؤتمرات وتدعو اليها ، وتنظم له المجامع وتبعث له البعثات ، وتكون له فى كل بلد « رابطة » ، وتنشىء من أجله فى كل قطر سوقاً ، لتضمن لها فى كل شعب حقوقاً . ولكن مصر لم تعمل لذلك حتى فى ألزم شعب لها وألصقها به . وذلك هو السودان . . .

كلما فكرت فى تعليل ذلك لم أجد ما يشفع لمصر فى افلات ما كان وما لا يزال يتهيأ لها أن تحقق فيه أن السودان قطعة من مصر يصح فيها ما يصح فى مصر ، ويجرى على هذه ما يجرى على تلك . ولا ينبغى أن نخادع أنفسنا فى تقرير الحقائق ، فان كل ما حصل لم يكن إلا نتيجة طبيعية لجهل مصر بالسودان واغفالها بدأة بدء توثيق العلائق الأدبيـة والروحية بينهما ، حتى لقد

وسرنا فاذا الطريق واسعة لاحبة لا تحتاج إلى دليل . قلنا للدليل أ كذلك طريقنا إلى بغداد ؟ قال لا . فسرنا لا نستهديه ولا نبالى ، إلا سؤالاً فى الحين بعد الحين « هل نمت ؟ » فيقول لا ، فنقول احذر أن تنام أو تقع فنضل فى هذه الصحراء . فنعم الدليل أنت . لولا أن من الله بك علينا لهلكنا . ولسنا ننكر على دليلنا أنه كان حديثاً ممتعا فى الصحراء سميناه الدليل النائم ، واهتدينا به إلى الفكاهة وإن لم نهتد به الى غاية !

بلغنا مدينة السلام منتصف الليل فأوينا الى الفندق وانصرف دليلنا ثم جاء صبحاً يطلب أجره فضحكنا وقلنا لخادم الفندق أبلغه أنا وهبنا له أجرة الركوب بمـا له من أجر الهداية فليذهب مأجوراً

(يتبع) عبد الوهاب عزام

استغل سادتنا الانجليز جهل مصر الفاضح بنا فوطدوا مصالحهم فى السودان وانتزعوا منه كل ما يدل على مصر ، إلا علماً ماتكاد تحس له بوجود . ولو قد كان لمصر أن تصرف عنايتها بعد عام ١٩٢٤ الى العلائق الأدبية وتنميتها لما اتسمت الهوة الفاصلة بين القطرين الى هذا المدى ، ولما قامت الموانع حتى دون أبسط شىء لايغير من مجرى الحوادث بقليل . ولكن مصر لم يكن يهمها بعد ذلك أن تعود للتفكير فيما يجعل الوشيجة بينهما قوية على الحوادث ، جديدة مع الأيام حتى ضرب الأنجليز ضربتهم القاضية ، ووقفوا دون المصرى والسودانى حتى عن معرفة ما ليس بد أن يعرفه كل عن أخيه ، لأنهم — وقد استغلوا هذا الجهل — كانوا يعلمون أن ماضربوا عليه من العلائق كان شيئاً لابد منه ، فلا ينفيه الأنكار ولا يطمس عليه النسيان أو التغافل . ولهذا فهم أشد خشية أن يطلع أحد ، وخاصة إن كان سودانياً على الحقيقة التى عبثوا بها . على وجود الصلات التى دفنت حية بعد أن جهدوا فى خنقها ، ولكنها كانت أطول نفساً وأكثر حيوية أن تموت ، على روابط صنعها الله وأحكم فى توثيقها ، ولا حل لما عقد ؛ وكانوا موفقين فيما أرادوا من تفرقة ، حتى لقد حاولوا بما يبثون ويذيعون من ضروب الارهاب وألوان النكال أن يجعلوا اسم مصر بعد عام ٢٤ شيئاً لا تسوغ القوانين النطق به ، وكلما شددوا فى النكير وأمعنوا فى المنع ، كان اسمها أشد إغراء وأكثر جاذبية وأقوى على لفت النظر ، وحمل عامة الناس أن يبحثوا عن السر الغامض الذى يأبى عليهم الأنجليز الاتصال به . ومصر — ألا سامح الله مصر — مع هذا كله لم يكن يهمها أن تعرف عن السودان شيئاً وهى تطالب بكل ما فيه . . !

والآن . . . لقد بلغ الأنجليز ما أرادوا . وضربت يد الغدر والمطامع على كل شىء ، حتى لتوشك أن تضرب على النيل فيتزلزل فينفلق فلا يعود يعرف أين تكون مصر . ولقد طالما عبثت الأطماع بما بين مصر والسودان من ألفة وتعاطف ، وأفسد الأستعمار هنا — فى السودان — والحماية هناك ما بين هذين القطرين من روابط وصلات كلها بر وكلها رحمة . . . الآن لقد تم لهم ما أرادوا ، ففرقوا وباعدوا ، وأغربوا فى التفرقة ، وأفلحوا فى مغالطة الحقائق الطبيعية ، وتنكروا لخرائط الجغرافيين ، وكابروا وخادعوا أن يكون شىء من هذا جديراً أن يحملهم على الأعتراف بخطئهم فيما حاولوا أن يطمسوا عليه من صلات كانت مصر هى فى الحق أول من أغفل العمل فى توثيقها والعناية بها ، فماذا تفعل الآن ...؟

نحن نطل اليوم على عهد جديد تأخذ العلائق فيه صوراً جديدة فيها من صحة المعرفة وحسن التفاهم ما يملؤنا ثقة بالمستقبل وإيماناً به ، وشعوراً بالوحـــدة والعمل لها فى جميع ما تقضى به مصالح القطرين ، وفى كل ما لا ينبغى إلا أن يكونا متحدين فيه بطبيعة « الجوار » إذا لم يكن إلا هذا ما يملى بوجوب هذه الوحدة فى اتجاه الحس والشعور ، وفى تبادل المنافع والمصالح . وأما وقد كان هناك من مستلزمات الوحدة ما يجعل الجوار فى آخر قائمة العلائق من لغة ودين وأدب وعروبة ونيل زاخر هادر متدفق يصور الرباط المقدس بين بلدين أشد ما يكونان تلازماً وارتباطاً . أما وقد كان كل ذلك فقد توفرت بواعث توحيد الأمتين كما يتوحد النيل قطرةً إلى قطرة وموجةً إلى أخرى وفيضاً إلى فيض . ولكن على أى أساس يقوم ؟ إن شيئاً من سيرة مصر الأولى فى السودان لن يعود اليها والحالة كما هى من تفكك فى علائق الآدب وتباين فى وجهة التفكير — هذا كلام صريح لا مكان فيه للتأويل — وإنا لنرى قبل كل شىء أن تقوم الصلات على الأدب فى بعض ما تقوم عليه ، ولن يمر على ذلك عهد إلا ويجىء من بعده ما يكفل للقطرين الشقيقين أن يدفقا على مجرى واحد كما يفعل النيل . لا أن نظل نقرأ ونسمع بالحاح مصر فى سبيل السودان ، فنعجب لها وهى لاتعرف عنا شيئاً صحيحاً . فان من الخير لنا ولها أن نلتقى الآن على الفكر ونتصل على الأدب من أن نظل هكذا لا صلتنا بصلة ولا تعارفنا بتعارف ، ولا انفصالنا بانفصال . فى مصر « روابط » للأدب وفيها مجامع للعلم ، وعندها شباب مثقف ، وفيها صحف كثيرة ، فكم هو أنفع لها وأجدى للسودان أن تمنى صحفها بشئونه فتأخذها بالمعالجة ، وتكب عليها بالدرس ، وتتناول أدبه بالنقد والتحليل فتقارب بين الأدبين وتلائم بين الذوقين . وكم هو خير لنا ولها وأكفل للوحدة ، وأبقى على المعرفة أن تبعث البعوث العلمية والأدبية — والأقتصادية كما فعلت الآن — فتحقق من حلم الوحدة بالعمل ، وتخرج بأقوالها الى التنفيذ

أم درمان — سودان

التيجانى يوسف بشير

الأنتكيرة هي أنكلتيرة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

نعود إلى الكتابة في هذا الموضوع مقتنعين بعد مراجعات طويلة بصحة رأينا أن الأنتكيرة في النص الذي نقلناه عن لسان الدين بن الخطيب في كتابه (الأحاطة) هي انكلتيرة وهي بالقاف بدل الكاف (انتقيرة) اسم مدينة ذكرها ياقوت في معجمه، فقال إنها حصن بين مالقة وغرناطة، ومنها أبو بكر يحيى بن محمد بن يحيى الأنصاري الحكيم الأنتقيري من أصحاب غانم، روى عنه ابراهيم بن عبد القادر بن شنيع إنشادات قال: كنا مع العجوز الشاعرة المعروفة بابنة ابن السكان المالقية، فمر علينا غراب طائر فسألناها أن تصفه فقالت على البديهة:

مر غراب بنا يمسح وجه الربى
قلت له مرحباً يا لون شعر الصبا

وقد ذكر القلقشندي في صبح الأعشى (ص ٢٦٩ جـ ٥) الحادثة التي ذكرها لسان الدين بن الخطيب، فقال إنه لما هلك الهنشة بن بطرة سنة ٧٥١ هـ في الطاعون الجارف ولي ابنه بطرة، وفر ابنه القمط إلى برشلونة، فاستجاش صاحبها على أخيه بطرة فأجابه، وزحف إليه بطرة فاستولى على كثير من بلاده، ثم كان الغلب لقمط سنة ٧٦٨ هـ، واستولى على بلاد قشتالة، وزحفت إليهم أمم النصرانية، ولحق بطرة بأمم الفرنج الذين وراء قشتالة في الجوف بجهة الليمانية وبرطانية إلى ساحل البحر الأخضر وجزائره، فزوج بنته من ابن ملكهم الأعظم المعروف بالبنس غالس وأمده بأمم لا تحصى، فملك قشتالة والقرنتيرة، واتصلت الحرب بعد ذلك بين بطرة وأخيه القمط، الى أن غلبه القمط وقتله سنة ٧٧٢ هـ واستولى القمط على ملك بني أدفونس أجمع، واستقام له أمر قشتالة، ونازعه البنس غالس ملك الأفرنجة بابنه الذي هو من بنت بطرة، وطالبه الملك على عادتهم في تمليك ابن البنت، واتصلت الحرب بينهما، وشغله ذلك عن المسلمين، فامتنعوا عن أداء الأتاوة التي كانوا يؤدونها إلى من كان قبله، وهلك القمط سنة ٧٨١ هـ

وهذا النص الذي ذكره القلقشندي فيه ما يمكن به الأهتداء في أمر أمة الأنتكيرة التي وصفها لسان الدين بن الخطيب، ولكن فيه غموضاً في سرد تلك الحوادث لبعدها عن القلقشندي، وقد كانت حوادث جديدة في عصره لم يتقرر أمرها ولم تدون في كتاب من كتب القوم الذين كانت في بلادهم وقائعها

وإنا نسوق من تاريخ هؤلاء القوم الحوادث التي اكتنفت هذه الحوادث التي وردت في ذينك الكتابين (الإحاطة) و (صبح الأعشى) معتمدين في ذلك على كتاب تاريخ ملوك فرنسا لمونيفورس الفرنسي من مؤرخي القرن التاسع عشر الميلادي، وعلى كتاب تاريخ انجلترا لجورجي زيدان

كان أدورد الثاني ملك انجلترا زوجاً لإزابيلة أخت كرلوس ملك فرنسا (١٣٢٢ ـ ١٣٢٨ م) فأرسل اليه أدورد الثاني ابنه برنس غالس ليهدي إلى فرنسة دوقية غيانة، فسافر الى فرنسا وأدى ما كلفه به والده

ثم انقضى عهد أدورد الثاني على انجلترا، وقام بعده ابنه أدورد الثالث وهو ابن إزابيلة أخت كرلوس ملك فرنسة، وكان كرلوس قد توفي وقام بعده على ملك فرنسة ابن عمه فيلبس دوولواس، فنازعه أدورد الثالث هذا الملك، ورأى أنه أحق به منه لأنه ابن أخت كرلوس، وأما فيلبس فليس هو إلا ابن عمه، وقد أعان أدورد الفلمند على فليبس وحملهم على مبايعته بملك فرنسة سنة ١٣٤٠م، ويقال إنه في ذلك الحين تلقب ملوك انجلترا بملوك فرنسة وحملوا أسلحتهم

ثم اتصلت الحروب بين أدورد الثالث وملوك فرنسة، وقد أرسل إليها ابنه أدورد برنس غالس (أوف ويلس) وكان يعرف بالأمير الأسود لسواد دروعه وأسلحته فاستولى على بعض أقاليمها، وأسر ملكها يوحنا لوبون سنة ١٣٥٥ م ثم أقام فيها حاكماً عليها، وقد بعث في مدة إقامته بها حملة إلى أسبانيا لمساعدة بيدرو الظالم فتحمل بسببها ديوناً كثيرة أدت إلى اعتلال صحته، ثم حارب محاربة أخرى فاز بها، ولكنه لم يبذل جزاء عليها، ثم حدث ما ألجأه إلى السفر إلى انجلترا، فمات بها عن ولد اسمه ريكاردوس فضعفت شوكة انجلترا في فرنسة، ولم يبق إلا قليل منها في طاعة أدورد الثالث، وقد أثر فيه موت ابنه حتى مات حزناً عليه سنة ١٣٧٦م بعد وفاة ابنه بسنة وخلفه رتشرد الثاني (ريكاردوس) ابن الأمير الأسود وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان قد قام في فرنسة كرلوس الخامس (١٣٦٤ ـ ١٣٨٠م) واستعان في أمره

بالفارس المعروف (براتراندو غسقلين) ومازال يترقى هذا الفارس حتى صار أمير الجيوش الفرنسية ، وجرت له حروب مع الأنكليز أسروه فيها ثم ردوه الى بلاده ، فأرسله كرلوس إلى اسبانيا سنة ١٣٦٦ م ليعاقب بطرس لوكريل (الجبـــار) ملك قسطيلة (قشتالة) ، وكانت رعيته قد كرهته ، وثقل ظلمه عليها ، فخلعه وولى بدله أخاه هنرى داترنستمارة ، وقد اصطحب دغسقلين معه فى تلك الغزوة عصابات من الجنود التى كانت قائمة بحفظ البلاد الفرنسية التى تركت للأنكليز ، فلمـا انقضت مهمتهم تجمعوا أحزاباً ، وصاروا يعيثون فى أرض فرنسة ، فأنقذها دغسقلين منهم بأخذهم معه إلى أسبانيا وإلحاقهم بجنـد هنرى الذى أقامه ملكاً عليها

وكان يعاصر ملوك فرنسة وانكلترا المذكورين من ملوك قشتالة الفونس الحادى عشر (١٣١٢ ـ ١٣٥٠ م) وبيدرو (١٣٥٠ ـ ١٣٦٨م) وهنرى الثانى (١٣٦٨ ـ ١٣٧٩ م)

ولاشك أن الفونس الحادى عشر هو الهنشة ابن بطرة الذى ذكر القلقشـندى أنه مات فى الطاعون الجارف سنة ٧٥١ هـ وهى توافق سنة ١٣٥٠م ، وأن بيدرو هو بطرة بن الهنشة الذى ملك بعد أبيه فى هذه السنة الى أن قتل سنة ٧٧٢ هـ على ما ذكره القلقشندى وهى توافق سنة ١٣٧٠م ، ولعل قتله كان سنة ٧٧٠ هـ لأنها هى السنة التى توافق سـنة ١٣٦٨ م ، وأن هنرى الثانى هو أخوه القمط الذى ذكر القلقشـندى أنه مات سنة ٧٨١ هـ وهى توافق سنة ١٣٧٩ م

وقد كانت المنافسة قائمة فى ذلك العصر بين فرنسة وانجلترا ، ولـكل من الدولتين أنصار من الدول الأوربية ، وكانت أحوال السياسة فى هذا العصر قائمة على هذه المنافسة ، فلما قام النزاع على ملك أسبانيا بين ابنى الفونس الحادى عشر (بيدرو وهنرى) انضم بيدرو إلى انجلترا ، وانضم هنرى الى فرنسة ، ولا شك أن تلك الحملة الفرنسية التى أرسلها كرلوس الخامس ملك فرنسة كانت من المساعدات التى لقيها هنرى (القمط) حينما التجأ إلى ملك برشلونة ، فأمده بجيش من عنده وزحف على أخيه بأمم من النصرانية كان منها تلك الحملة الفرنسية لأن تاريخها الميلادى (١٣٦٦ م) يوافق السـنة الهجرية التى ذكر القلقشندى أن القمط تغلب فيها على أخيه بطرة (سنة ٧٦٨ هـ)

أما الأنكليزية التى وجهها البرنس غالس (أوف ويلس) إلى أسبانيا حينما التجأ اليه بطرة بن الهنشة فكانت بعد الحملة الفرنسية السابقة وبها تمكن بطرة من خلع أخيه القمط والاستيلاء على ملك أسبانيا إلى أن قتله أخوه القمط سنة ٧٧٢ هـ أو سنة ١٣٦٨ م والفرق بينهما سنتان على ما قدمنا ، وجنود هذه الحملة هى جنود الأنتكيرة التى أعجب ابن الخطيب فى كتاب (الأحاطة) بقتالها ، ولا يصح بعد هذا شك فى أن الأنتكيرة هى أنكلتيرة كما هو رأينا

عبد المتعال الصعيدى

في تاريخ الأدب المصري

٤ ـ ابن النبيـــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوي

تتمـــة

المدح والغزل أهم ما طرقه من الأغراض ، أما الوصف فانه يأتي عرضاً غير مقصود ، وقد وصف لنا ما تبتهج به نفسه من مُتع كما ذكرنا ، وأما الرثاء فهو جيد وإن كان قليلاً ، وهو يجيد الرثاء والعزاء ، استمع إليه حين يرثي ويعزي قائلاً :

الناس للموت كخيـل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
والموت نقاد ، على كفه جواهر يختـــار منها الجياد
مصيبة أذكت قلوب الورى كأنمـــا في كل قلب زناد
ياثالث السبطين خلفتني أهيم من همي في كل واد
ويا ضجيـع الترب أقلقتني كأنما فرشي شوك القتـــاد
دفنت في الترب ولو أنصفوا ما كنت إلا في صميم الفؤاد
خليفة الله اصطبر واحتسب فما وهي البيت وأنت العماد
في العلم والحلم بكم يقتـدى إذا دجا الخطب وضل الرشاد

ولعل الظروف التي أحاطت به لم تلجئه إلى الهجاء ، ولذا لا نعثر عليه فيما بين أيدينا من شعر

— ٦ —

يمتاز شعر ابن النبيه بالسهولة والرقة والعذوبة ، سهولة تذكرنا بديباجة البحتري العذبة في نقاء ، والسلسة في امتناع ، وهو مع سهولته يرتفع عن الأسلوب العامي إلا في النادر جداً ، حين يجد التعبير العامي هو التعبير الذي يؤدي المعنى الكامن في نفسه تماماً ، ولكنه مع ذلك يهذبه ويشذب أطرافه حتى يعـــلو ويرتفع .
وهناك ظاهرتان أخريان فيـه : أولاهما استخدامه كثيراً من الكلمات الفارسية في شعره ، ولعل لمعيشته بالجزيرة وقربه من بلاد الفرس ، ولحبه التجديد والتطرف أثراً في ذلك كبيراً ، فأنت تسمع في شعره كلمة اللاذ معرب اللاد وهو قماش حرير لطيف جداً ، وتسمع كلمة الكلهبند وهي مركبة من كله وهو اسم لما يلبس فوق الرأس وبند وهي بمعنى رابط ، ومجموعهما اسم لما يشد به ما على الرأس إلى الذقن لئلا يقع ، ويستعمل كلمة جوكانه بمعنى صولجانه وغير ذلك . وأخراهما ما تراه في شعره كما تراه في شعر غيره من المصريين من حب للبديع وافتتان بأنواعه وفنونه ؛ ولقد أغرم شاعرنا بتلك الأنواع البديعية ، ولاسيما الطباق والأقتباس وحسن التعليل واللف والنشر ومراعاة النظير والجناس والتلميح ، كقوله :

تبسم عن منظوم در ، فان تكلمت جاءت بمنثور

وقوله :

إن جنحوا للسلم فاجنح لها ما خـــدع الحرب بتقصير

وقوله يصف الخمر :

بكر إذا ابن سماء مسها لبست ثوب الحباب حياء منه واتشحت

وقوله :

فالناس بين بنانه وبيانه في نعمتين رغائب وغرائب

وقوله :

عزيز يوسفي الحسـ ن لم يُشر ولم يسجن
قد ابيضت به عيني وللمهجور أن يحزن

ولقد كان حينما يمدح القاضي الفاضل يتأنق ويجتهد الأجتهاد كله في الصناعة اللفظية شأنه في ذلك شأن غيره ممن اتصل بالقاضي ومدحه ، ولقد نظم فيه قصيدة استخدم الأقتباس في كل أبياتها واقتبس من سورة المزمل إذ قال :

قمت ليل الصدود إلا قليلا ثم رتلت ذكرهم ترتيـلا
ووصلت السهاد أقبح وصل وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مسمعي كَلَّ عن كلام عذولي حين ألقي إليه قولاً ثقيلا
وفؤاد قد كان بين ضلوعي أخذته الأحباب أخذاً وبيلا
قل لراقي الجفون إن لعيني في بحار الدموع سبحاً طويلا الخ

وعلى هذا المنوال نسج قصيدته ، وذلك غـير مستغرب على رجل يخاطب القاضي الفاضل الذي كان زعيم الطريقة التي تعنى بالصناعة والبديع . غير أنه لا ينبغي أن نظن أن استخدامه البديع أضاع من جمال الشعـر أو حط من قيمته ، فشاعرنا لبق يجيد استخدام البديع من غير أن يؤثر في جمال الشعر وروعته .
هذا ولشاعرنا بعض موشحات ليست بقوية ولا رائعـة ، وهي أضعف من شعره العادي ، وأحدها ينطق بدون إعراب ، ولعل

محاولته فى الموشحات لم تنجح فانصرف عنها ولم يكثر من الموشحات ، كما أنه خرج على أوزان الشعر العربى القديم قليلا حينما كان يقول شعراً من الدوبيت ، وهو وزن لم يستعمله العرب القدماء وإنما اخترعه المولدون

— ٧ —

فاتنى أن أذكر لك اسم شاعرنا ، وأنه أبو الحسن على بن الحسن بن يوسف بن يحيى ، ويلقب بكمال الدين ، ويكنى بابن النبيه ، وفاتنى أن أقول لك : إنه كان حاضر البديهة حسن التعليل ، ويذكرون من ذلك أنه رأى الأشرف يوماً يرتعش بالحمى ، فنظم على البديهة وأنشده :

تباً لحماك التى   كست فؤادى ولها !
هل سألتك حاجة   فأنت تهتز لها ؟

ومرة انكسر يراع الأشرف وهو يكتب فالتمس غيره فلم يجد فقال له : أقلامك يا كمال قليلة ، فنظم ارتجالا قوله :

قال الملك الأشرف قولاً رشداً   أقلامك يا كمال قلت عددا
ناديت لطول كتب ما تطلقه   تحفى وتقط فهى تفنى أبدا

ومرة غنى بين يدى الملك العزيز دوبيت بالعجمية معناه أنه جعل الليل برد دارا للحبيب ليحجب الشمس ، فاستحسن المعنى وأرسل إلى وزيره أن يأمر الشعراء بالعمل فى ذلك ، فأنشد كل منهم ما ورد عليه ، ودخل ابن النبيه على الوزير ، فطلب منه أن يعمل فى ذلك ، فاستمهله فأبى فقال :

قلت لليل إذ حبانى حبيباً   وغناء يسبى النهى وعقارا
أنت ياليل حاجبى فامنع الصبـ   ح وكن أنت يا دجى برد دارا

وبرد دارا فارسى معرب معناه الحاجب ، والغناء بالفارسية قد يفسر لنا وجهاً من الوجوه التى أدخلت الكلمات الفارسية فى شعر ابن النبيه ، ولسرعة بديهته تلك كان الملك الأشرف كثيراً ما يطلب منه قول الشعر ارتجالا فى أى موضوع يعن له

سكن ابن النبيه نصيبين ، وهى مدينة فى شمال الجزيرة بعد أن غادر مصر ، وبعد نحو ستين عاماً من مولده (إذ أننا لا نعلم تاريخ ميلاده على وجه التعيين) مات ابن النبيه فى اليوم الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة تسع عشرة وستمائة .

« تم البحث »

أحمد أحمد بدوى
بالأوقاف الملكية

صورة من أدب السودان

قصيدة نقدية

للأستاذ عبد الله عبد الرحمن

العروبة

تنكر من وادى العروبة مورد   فلا الزهر مفتر ولا الغصن أملد
ولا ماؤه ينساب بين رياضه   ولا الطير فى أفنانهن تغرد
وقفت على الوادى مليًّا فهزنى   وبدد شملى شمله المتبدد
مضى متنبيه وحسان دوحه   وغاب معريه الحكيم المجدد
أسائله : أين الذين تحدثوا   اليك وفى هذا المكان ترددوا
على ظلك الضافى جلوس وكلما   أهاب بهم داعى السماحة أنشدوا

أحمد زكى باشا

كأن لم يكن شيخ العروبة نازلاً   به ولهاً من علمه متزود
زكى ! نصير العرب فى كل موطن   بهول ، وماضيها الذى تتقلد
عليك سلام الله أحمد ، هامداً ،   وأستغفر المولى ، فما الفضل يهمد
وكان الرجال العبقريون إن قضوا   بما لهم من شامل النفع خلدوا
لقد كنت براً بالعروبة كلها   وفى نصرها قد كنت لا تتردد
إذا طلع الغرب الحديث بآية   من العلم كبرى وازدهاه التفرد
عمدت الى التاريخ تسأل حكمه   وأثبت أن العرب من قبل مهدوا
فساحوا وطاروا فى السماء ويممت   سفينهم الكون الجديد وأصعدوا

الفوضى

وفوضى على الأكوان جرت ذيولها   وبات يعانيها مسود وسيد
مظاهرها فى كل ناد ، وإنما   عواقبها موت الشعور المؤكد
فشت فى زمان فاض غدراً بأهله   ودب الى آدابهم فيه مرقد (١)
لنا لغة أما بنوها فأنكروا   فضائلها والمنكر الحق ملحد
هو جهلوا منها علوماً كثيرة   وفاتهمو منها المعين المجدد
وما قدروها فى اللغى حق قدرها   وكانوا أناساً للأباعد أخلدوا
وآياتها فى كل يوم وليلة   تثنى ، ولكن بالمحامد تفرد
أرادوا ، وظلم ما أرادوه بين ،   بما لم يكونوا فاعلين ليحمدوا

(١) المرقد : شراب يخدر

إذا نظروا للأقدمين مقالة ولم يفهموا ، قالوا : كلام معقد
و إنْ لَمْتَهم يوماً أشاحوا بوجههم وأرغوا كما يرغى البعير وأز بدوا
همو زعموا أن الزمان مؤخرٌ وما لزمان فى تأخرنا يد
ولـكنه لما وهى حبل خُلْقنا مشينا كما يمشى الأسير المقيَّد

***

لقد مُنيتْ أم اللغات بفتيةٍ طغام على أعلامها تمرد
وقدأشربواحبَّ الأعاجم فانبروا إلى هذه الفصحى سهاماً تسدد
تواصوْا بشرٍّ وهو كتمان فضلها وقالوا بأنا معشر لا نقلد
وقالوا لقدضاقت عن العصرحاجها وفى وجهها باب الثقافة يوصد
وقالوا بأنا أنجبتنا معاهد وأوحت إلينايابنى العصرجددوا
وما هو تجديد فنكبر أمره ولـكن دَعاوَى منهمو وتزيُّد
وهل ينبغى التجديد إلا لعالم له فى فنون الضاد رأى مسدد ؟
قضى زمناً فى البحث والدرس جاهداً فقرت له الفصحى بما هو مُورد
حوى قصبات السبق فى جيله وهل حوى قصبات السبق كسلان قُعْدُد

***

أقول لمن قالوا شهدت لها وقد تغاليتَ فيها . لـكن الله يشهد
وهل كان إلا الله داعٍ لرفعها و بناؤها إلا النبيُّ محمد
أرى الخرق يزداد اتساعاً بثوبها وعارٌ علينا ثوبها يتقدد
تمسك قوم بالجديد فأتهموا وعُلق بالعادىِّ[1] قوم فأنجدوا
و بين الفريقين استحرّت كما ترى حروب .وخوفى أنها ليس تخمد
فما لبنى الضاد الكريم تفرقت بهم سبل والحق لا يتعدد
ومرشدهم ضلَّ الطريق فما عسى يكون سوى الخسران إن ضل مرشد ؟

الشعر

لعمرك إن الشعر أضحى مخنثاً قوافيـه من تَحنانها تتأوّد
وأصبح غثاً فى الركاكة ضارباً بسهم ، وعاسنت العُرب يبعد
وأمعن فى لين و بخس مطالبٍ وكاد على أيدى التشاعر يجمد
لقد خمدت بالقوم نار حميةٍ تلظى ، وخوفى أنها ليس توقد
فحتى متى نغفى الجفون على القذى وحتى متى نُعنى بما ليس يحمد ؟
إذا ما أسود الغاب خلت ذئابها تعيث فإن الحرث والنسل يفسد

(١) العادى القديم نسبة إلى عاد

لقدهاجنى أنى أرى الروض باسما ولست أرى فيه بلابل تَغَرَّد
وقدهاجنى أنى أرى الربع مقفراً وليست له أنفاسنا تتصعد
إذا الشعر لم يترك بقلبك روعة فلا هو سيّار ولا هو جيد
و إن هو لم ينهض بأعباء أمةٍ فذاك هراء ميت قبل ينشد
و إن أنت لم تذعن لآيات سحره فقل إننى بين الخلائق جلمد ؟
إذا ما شياطين النفاق تمردت بأرض فباسم الشعر فى الأرض تطرد

كتاب العصر

ولأ كذب الرحمن ، فى العصر أنجم حماة لها ، من غيرة تتوقد
وصـيّابة[1] أدت أمانة قومها وقامت على ضوء (الرسالة)[2] ترشد
يطالعنا (الزيات) فيها بنافعٍ من القول لا يطغى ولا يتقيد
(وهيكل) فى أثوابه أى كاتبٍ خصيب إلى خير الأساليب يعمد
ولله طه بن الحسـين فانه على نثره الفذ الخناصر تعقد
وإن تذكر الكتاب فاذكر غريبهم (شكيباً) ففى آثاره ما يخلد
حمى حوزة الدين الحنيف وغادرت جوائبه[3] الدنيا تقوم وتقعد

شعراء العصر

(ومطران) يسمو للخيال مصعداً فيألفه وحشـيُّه المتأبد[4]
و يعجبنى شعر (الهراوى) فإنه رصين قويم ليس فيه تجعُّد
جميل الزهاوى والرصافى كلاهما هو اليمّ فى آذيِّهِ[5] يتزبَّد
أقاما بأرض الرافدينِ ليرفدا ووَدّا لو ان الناس طرّا تبغددوا

السودان

وكانت لنا فى غابر الأمس نهضة مباركة لا اللهو منها ولا الدَّد
فعبد الرءوف و (الخطيب)[6] كلاهما له بيننا الفضل الذى ليس يُجحد

(١) خيرة القوم (٢) مجلة الرسالة التى يحررها الاستاذ الزيات
(٣) مقالاته التى تجوب البلاد (٤) المتأبد المتوحش
(٥) الآذى : الأمواج ، والرافدين : الدجلة والفرات
(٦) الأستاذ الشيخ عبد الرءوف سلام كان مدرس اللغة العربية بكلية غردون العليا بالخرطوم . أخذنا عليه علوم اللغة العربية ولم نر أعرف منه بمتن اللغـة ولا آخذ منه بنواحيها — والخطيب : هو فؤاد باشا حسن الخطيب رئيس ديوان الأمير عبد الله أمير شرق الأردن ، وكان مدرس الأدب العربى بالكلية أيضاً ، ومكانته معروفة فى العالم العربى . وكان شعر عبدالرءوف يشبه شعر الوليد البحترى ، وشعر الخطيب يشبه شعر المتنبى

هما حركا منا النفوس وأنشرا علوماً على أضوائها اليوم نصعد
وقد طالما هزّا النفوس بطيّبٍ من القول يرضاه الوليد وأحمد
ولاحا على الخرطوم نجمى معارفٍ به وعوادى الدهر إذ ذاك تولد
وفى اليوم قد شابت وشبّ وليدها ومارسها منا كبير وأمرد
وذلك عهد قد سعدنا بظله لو ان الكريم الحرّ فى الدهر يسعد
فآليت لا أنسى له فضل نعمة علىّ ، وللأحسان منى ممجّد
أولئكم الكتاب آساس نهضة وكنز ثمين للثقافة يرفد
هم العائشون فى نفوس كثيرةٍ وفى كل قطر من صنائعهم يد
تخيرتهم بين الأنام لفضلهم وأكبرتهم إن كنت للناس أنقد

الى العرب

بنى العرب فى السودان والشرق كله
لكم ولكم يورى زنادى ويصلد
أفيقوا فان الوقت سيف مجرد
عليكم ووقت الناس فى الغرب عسجد
إذا لم نشخّص داءنا فدواؤنا عسير وفى اغفاله ما يهدد
يهدد نهضات بدت فى شبابنا جديداً وخوفى انها سوف ترقد
علوم اللسان لو علمتم كثيرة وفى جهلها ترك لما هو أوكد
وأولها أن تروى الشعر ناصعاً عن العرب لا يسمو اليه المولد
وأن تقتل الألفاظ فهماً وتنتقى أحاسنها يوم الكتابة تقصد
فياليت شعرى هل ملأتم وطابكم من العلم حتى تكرموا وتمجدوا ؟

***

هلموا نوادى العلم فى كل بلدة تقول لكم إن الطريق معبد
إلى حاملى الأقلام من كل ملة إلى العرب فى أى الأماكن توجد
نظمت لكم مما أحس قوافيا لعلّ أمانى اليوم يأتى بها الغد
وهيهات يسمو للكرامة فى الورى أديب عن الانتاج فى الفن يقعد
فان تنصروا العرب الأكارم تنصروا
وإن تخذلوها فالبقية تفقد
أناس متى ما تطّلب مشبهاً لهم طلبت من الأشياء ماليس يوجد

الخرطوم — سودانه عبد الله عبد الرحمن

قصة أميرة مصرية

للأديب حسين شوقى

جلس الآله أوزريس قاضى قضاة «الأمنتى[(١)]» وهو الذى يحاسب الموتى على أعمالهم فى الحياة الدنيا ، إلى مكتبه يراجع ملفات بعض الموتى ، وكانت نافذة المكتب تشرف على حدائق « الأورو[(٢)] » الغناء حيث حجم الزهور أضعاف حجم زهورنا الأرضية ، ولكن أوزريس لم يبال المنظر الجميل الذى أمامه ، لأنه كان مشغولاً بمراجعة قضايا الموتى ، وقد استلفت نظره على وجه خاص الملفّ الآتى ، وهو لخادم شابّ من أهالى منفيس .

يقول صاحب الملفّ :

أنا « سبدو » بن «واخ» كنتُ خادماً فى قصر الأميرة العظيمة تتا بمنفيس . .

أى أوزريس ! سيد « الأمنتى » انى أنشر قصتى بين يديك : أنا « سبدو » بن « واخ » هربتُ من المدينة وذهبت إلى الصحراء ، حيث قتلت نفسى بيدى لتأكل جسدى الوحوش حتى لا أبعث[(٣)] ، لأنى لا أرغب فى هذا البعث ، بل لا أستحقه . .

وكتبتُ هذه الوثيقة خشية أن أبعث على الرغم منى ، وذلك بأن يعثر البدو على جسدى قبل أن تفترسه الوحوش فيحنطوه شفقة منهم . . فاذا بُعثتُ أى أوزريس ! فعاقبنى أشد العقاب . .

إن أقاربى يستطيعون أن يقدموا إليك القرابين ابتغاء مرضاتك والتماس عفوك ، ولكن لا تسمع إلى توسلاتهم ، لأنى مذنب شديد الذنب لا أستحق الشفقة . .

كنتُ بستانياً لدى الأميرة تتا ، وهى سيدة عظيمة تعيش بقصرها فى عزلة عن العالم منذ أن فقدت زوجها فى إحدى الحروب النوبية ، ولم تكن لها تسلية غير ابنتها « شفيت » ، وهى فتاة جذّابة خلابة نضيرة ، أشبه بزهرة اللوتس عندما تتفتح فى الفجر . .

(١) الأمنتى : العالم الآخر
(٢) الأورو : الجنة
(٣) يعتقد المصريون القدماء أن الانسان لا يبعث الا إذا حنط جسده .

٢٣ ـ ٤٠

لقد أحببتها لأول وهلة . . إن قلبي كاد يثب من صدري حينما دنوت منها يوماً في الحديقة ، وقد نزلت الأميرة تقطف بعض الزهور التي تحبها ، وليس غريباً أن تحب الأميرة الزهور ، فهي شبيهة بها في نضارتها . . ساعدتها في القطف حتى لا يدمى الشوك أناملها الطفلة . . شكرتني الأميرة الصغيرة في ذلك اليوم بابتسامة ساحرة دون أن تنظر إلى ، لأني حقير ممعن في الحقارة بالنسبة إليها ، وكنتُ فوق ذلك دميماً ، بل دميماً جداً . .

أى أوزريس ! كم عذبني الحب ! إن شياطينك القادرة لم يكن في استطاعتها أن تفعل بي مثل ما فعل الحب . .

كنت أقضي الليل مؤرقاً ، بل مختبئاً وراء الأشجار عند نافذة الأميرة ، أتلمس رؤيتها . .

كم ليال لذعني فيها البرد القارس وأنا في مخبئي أشتهي ضم ذلك الانسان الجميل ، ولكن بلا أمل ، كما يشتهي الهر ضوء القمر وهو منعكس على المستنقع ، وقد حسبه لبناً في طبق . . !

ولقد أصبت بغيرة شديدة من جراء هذا الحب . . بلغ من غيرتي على الأميرة أني كنت أغضب حينما تنظر هي من نافذتها إلى القمر ، لأني تخيلت أن القمر يبتسم لها ويغازلها . . .

صعقت يوماً بنبأ خطبة الأميرة إلى أحد أقارب فرعون . . . فكرت في أول الأمر أن أقتل نفسي ، ولكن الغيرة التي أنشبت مخالبها في قلبي ، أمرتني بقتل الأميرة قبل أن أقتل نفسي ، حتى لا ينعم بها أحد . .

وإليك أوزريس كيف نفذت جريمتي :

نزلت الأميرة يوماً إلى الحديقة تقطف زهراً ، فدنوت منها أساعدها وقلت :

أميرتي ، إن عندي سراً عظيماً ، هل تأذنين لي أن أفضي به إليك ؟

قالت في شيء من الاهتمام : وما هذا السر ؟

قلت : عثرت على كنز عظيم يحوى أساور من الذهب ، وأقراطاً من الفضة ، وخواتم من اللازورد . . فقاطعتني قائلة في اهتمام شديد هذه المرة ، لأن للنساء ضعفاً أمام الحلى كما تعلم

— وأين الكنز ؟ إلى به !

قلت : إذا شئت يا أميرتي ذهبت بك إليه .

قالت : وهل مكانه بعيد ؟

قلت : كلا ! إنه على مسافة قليلة من القصر

قالت : أين هو ؟

قلت : في الصحراء

قالت : لنذهب على الفور ، اذهب فناد وصيفتي لتصطحبنا . .

قلت : أرجو أن تأتي وحدك يا سيدتي ، إذ يجب أن يبقى أمر الكنز مكتوماً ، لأن فرعون لو علم به استولى عليه . .

قالت : إذن هيا بنا . .

سرنا في الطريق ، وكنت أثناء المسير أود أن أضمها إلى ، ولكن كان لجمالها روعة نهتني عن ذلك . .

ولما بلغنا مكاناً خالياً في الصحراء ، أدخلت الأميرة في نفق حفرته بالأمس على سمة مقبرة في جانب الجبل ، ثم قلت : إليك الكنز ! ولما دخلت الأميرة متشوقة إلى رؤيته ، أغلقت عليها النفق بحجر ضخم كنت أعددته بالأمس أيضاً لهذا الغرض ، ثم غادرت المكان تواً حتى لا تضعف نفسي في آخر لحظة فأعود عليها .. هاهوذا جرمي أى أوزريس ! ولكني تمكنت من أن أحرم أى إنسان مساسها والتمتع بها ، حتى أنتم معشر الآلهة حلت بينكم وبين الوصول اليها ، فقد حرمت الأميرة من التحنيط بهذه الطريقة التي ماتت عليها ، فهي لن تبعث في العالم الآخر ! وبينما كان أوزريس منهمكاً في قراءة هذه الوثيقة الغريبة ، إذا ولده هوروس الشاب يقبل عليه يطلب منه شيئاً فالتفت اليه أوزريس وناوله الوثيقة وقال :

اقرأ ! أى عقاب يستحقه هذا الرجل ؟

فتناول هوروس الوثيقة في امتعاض لأنه لم يأت لهذا الغرض ، ولكنه ما كاد يبدأ في تلاوتها حتى اهتم إهتماماً عظيماً ، وما كاد يتمها حتى ألقى بها جانباً على المكتب وخرج يعدو ، ناسياً مطلبه من أبيه . .

فتبعه أوزريس وهو يصيح :

إلى أين ؟ الى أين ؟

فقال هوروس : الى النفق الذى فيه الفتاة فلعلني أبعثها !

كرمة ابن هانئ حسين شوقي

البريد الأدبي

وصية بارتو الأدبية

نذكر أن مسيو لوى بارتو السياسي الفرنسي الكبير الذى قتل فى أكتوبر الماضى فى مرسيليا إلى جانب الملك اسكندر الصربى ، قد أوصى بمعظم تركته إلى الأكاديمية الفرنسية التى كان من أعضائها . وفى الأنباء الأخيرة أن الأكاديمية قد قررت بصفتها منفذة لوصية مسيو بارتو ، أن تخصص من ريع التركة ثلاث جوائز أدبية كبرى : الأولى باسم الفقيد نفسه ، وتمنح لأعظم كاتب فى العام ، والثانية باسم مدام بارتو وتمنح لأعظم كاتبة ، والثالثة باسم مكس بارتو ولد الفقيد الذى قتل فى الحرب دون الثلاثين ، وتمنح لأعظم كاتب من الشبان دون الثلاثين

هذا ومن جهة أخرى فقد تقرر أن تعرض المجموعات الأدبية والفنية التى تركها بارتو للبيع بالمزاد . وتحتوى هذه المجموعات التى أنفق بارتو فى جمعها طول حياته على تحف نادرة من مخطوطة ومطبوعة وصور وتماثيل وغيرها

بين الخالدين

توفى أخيراً أحد « الخالدين » أعنى عضواً من أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، وهو المؤرخ الكبير لينوتر Lenôtre ؛ توفى فى التاسعة والسبعين من عمره بعد حياة حافلة بالبحث والتأليف والكتابة ؛ وكان حتى آخر لحظة يقوم بتحرير فصله التاريخى الممتع فى جريدة « الطان » تحت عنوان « التاريخ الصغير » . وظهر فصله الأسبوعى كالعادة بعد يوم من وفاته . ولينوتر اسم مستعار للمؤرخ ، واسمه الأصلى هو لوزان تيودور جوسلان . وكان لينوتر من أعلام تلك المدرسة التاريخية الحديثة التى عنيت بالتحقيق والاستقصاء فى الدقائق والتفاصيل الشخصية والاجتماعية لأنها ترى فيها أهم ما يلقى الضياء على طبيعة الحوادث والأشخاص ، ومن زملائه فى تلك المدرسة فونك برنتانو عضو المجمع العلمى ، وبيير دى نولهاك عضو الأكاديمية . واشتهر لينوتر بالأخص بكتاباته عن الثورة الفرنسية وعن الشعب الفرنسى والحياة الفرنسية فى ذلك العصر ، وله فى ذلك عدة مؤلفات ورسائل قيمة . منها « أسر مارى انتوانيت وموتها » « المقصلة ومنفذو الأحكام أيام الثورة » « الملك ونورة لافندى » « دى شاربت » وله مجموعة عنوانها « القصور القديمة والوثائق القديمة » . وكان لينوتر أيضاً صحفياً بارعاً جم الانتاج يكتب فى أشهر الصحف والمجلات . ولبث أعواماً طويلة يكتب مباحثه فى « الطان » بعنوان « التاريخ الصغير » . وقد انتخب عضواً بالأكاديمية فى ديسمبر سنة ١٩٣٢. واستقبلت الأكاديمية نبأ وفاته بالمراسيم المعتادة ، وألقى مديرها العامل المسيو هنرى بوردو خطاب التأبين للمؤرخ الراحل ؛ ومما قاله : « إن لينوتر قد تبوأ فى عالم المباحث التاريخية مركزاً خاصاً ، فهو يتعلق بالأشخاص ، والنوادر ، والحياة الخاصة ، والتفاصيل المغرية أكثر مما يعنى بالحوادث وملحقاتها ؛ ولقد كان يتمتع بموهبة يحسده عليها كثير من القصصيين : هى موهبة الحياة »

جائزة جرنجوار

لمجلة جرنجوار الفرنسية جائزة سنوية قدرها خمسة آلاف فرنك تمنح كل عام لأحسن أثر « اخبارى » (ريبورتاج) يصدر فى العام . وقد منحت هذه الجائزة خلال مأدبة عشاء أقيمت جرياً على العادة السنوية لمسيو مارسل جريول عن كتابه الذى ظهر أخيراً عن الحبشة وعنوانه « حارقو الانسان » . ومسيو جريول من العلماء الشبان ، تلقى دراسة علمية عالية ، وتخصص فى مباحث الأجناس البشرية ، وساهم فى عدة بعثات علمية رسمية أرسلت الى السنغال والحبشة وغيرها ؛ وله أسلوب علمى جذاب بما يسبغه عليه من البساطة والطابع الصحفى

عيد الربيع القومى فى سورية

عقد فريق كبير من طلبة الجامعة السورية والمدرسة التجارية والمدارس الثانوية العالية اجتماعاً بحثوا فيه مشروع إقامة عيد قومى فى الربيع ، وقد أطلقوا عليه اسم « عيد الربيع القومى »

وسيكون هذا اليوم من الأيام التاريخية ، إذ يسير الشباب بشكل مواكب تمثل أزاهير دمشق ، وبعض مواكب تمثل مجد العرب الغابر على شاكلة أعياد الربيع فى فرنسا

وسيقوم الشاب الأديب السيد أحمد القباني الطالب في مدرسة التجارة العليا برحلة الى المنطقة الشمالية للاجتماع باخوانه الشباب والطلبة في الشهباء والبحث معهم في هذا الصدد لجعل هذا العيد عيــداً قومياً شاملاً تشترك فيه سائر المناطق السورية في ربيع كل عام «عن الجزيرة»

بلاطة أثرية تكشفها السيول في نابلس

كان من جراء السيول التي اجتاحت نابلس أن كشف التراب عن بلاطة تاريخية عظيمة الشأن

وقد اهتمت دائرة الآثار في فلسطين بها وأوفدت لجنة فنية فعاينتها وقررت نقلها إلى المتحف وتكليف رجال الفن بترجمة ما نقش عليها

وقد ظهر حتى الآن أن هذه البلاطة نقلت من مكانها الأصلي المجهول حتى الساعة لتبنى في السور حيث وجدت ، وقد صرح أحد السامريين أن الكتابة المنقوشة عليها هي الوصايا العشر ، وقد كتبت باللغة الآرامية التي كتبت بها توراة السامريين

ولا يزال علماء الآثار يفدون لمشاهدة هذه البلاطة التاريخية التي ربما كشفت عن مدينة يهودية قديمة في شرق نابلس «عن الأرز»

هل للراغب الأصبهاني ترجمة وافية ؟

احتجت الى ترجمة الراغب الأصبهاني صاحب المفردات (والمفردات شهرة ومكانة تداني شهرة القاموس ومكانته) و«الذريعة» و«تفصيل النشأتين» و«محاضرات الأدباء» وغيرها من المصنفات الجليلة ، ففتشت فيما بين يدي من كتب التراجم ، فلم أقف إلا على هذه النتف الصغيرة التي لا تروي غليلاً :

قال الزركلي في الأعلام :

هو أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل ، أديب كبير من العلماء من أهل أصفهان (وتسمى أصبهان) مات سنة ٥٠٢ . من كتبه محاضرات الأدباء الخ . . .

وقال في بغية الوعاة :

« هو المفضل بن محمد الأصبهاني الراغب صاحب المصنفات ؛ كان في أوائل المائة الخامسة ، له مفردات القرآن ، وأفانين البلاغة ، والمحاضرات ، وقد وقفت على الثلاثة ، وقد كان في ظني أن الراغب معتزلي حتى رأيت بخط الشيخ بدر الدين الزركشي الخ مانصه : ذكر الامام فخر الدين الرازي في تأسيس التقديس في الأصول ، أن أبا القاسم الراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالي ، قال : وهي فائدة حسنة فان كثيراً من الناس يظنون أنه معتزلي »

وأثبت مثل هذا في آخر الطبعة اليمنية للمفردات نقلاً عن كشف الظنون وغيره ، وروى مثله السلطان محمد صديق خان في البلغة

ولم أجد أكثر من ذلك ، فأرجو ممن وقف له على ترجمة وافية ، أن يتفضل فيبعث بها الى (الرســالة) أو يرشدنا اليها ، ولست أظن أن مثل الراغب تنسى ترجمته أو تضيع !

دمشق علي الطنطاوي

حول محطة الاذاعة اللاسلكية

. . . مدير مجلة « الرسالة » الغراء

. . . . وبعــد ، لقد نشرتم تحت عنوان الأذاعة اللاسلكية العربيــة بعدد ٧٥ من مجلتكم فقرة تهم عالم الراديو ، فانني أشكركم على اعتنائكم هذا ، حيث نهتم الرأي العام المصري لمسألة جديرة بالاهتمام . حقيقة أن المحطة المصرية لا تفي بالمقصود لأنها على ما أظن محطة إسلامية قبل كل شيء . وبما أن مصر هي اليوم حاملة لواء الأدب العربي فان أنظار المسلمين قاطبة متجهة نحو ذلك الوطن المحبوب . ليست القاهرة قاعدة لمصر فحسب ، بل هي عاصمة العالم الشرقي الباسط جناحيه على أفريقية وآسيا .

إذن ليست المحطة المصرية محطة محلية ، بل هي محطة واسعة النطاق ، وجدير بمصر أن تكون لها محطة إذاعة تباهي بها أرقى الأمم ، وبها تتغلب موجاتها الفائضــة بالفصحى على الموجات الأعجمية كي تنال الحظ الوافر من الأثير . ألا يكفي العالم الغربي استعماره الأرض حتى يبغي الاستحواذ على الأثير ؟

لهذا كله أرغب من ولاة الأمور بتلك الديار الشاسعة تحسين محطتنا العربية كي يعم نفعها ، فاقترح عليهم واحداً من اثنين :

١ — تغيير طول موجة المحطة المصرية لأنها تشاركها في طول الموجة محطة بروكسيل وكل من المحطتين لها ٦٣٠ كيلو سيكلا ، ويجب أن يكون بينهما تسعة ك . س على الاقل كيلا تمتزج الأصوات ، فليختاروا لها مقياس محطة تكون أبعد من المحطة البلجيكية وأضعف منها قوة كمحطات النرويج مثلاً التي يوجد بينها من لا تزيد قوتها عن نصف كيلو وات كمحطة بودوى Bodoe التي يبلغ طول موجتها ١ر٢٣٥

٢ — أو على المحطة المصرية إن أبت إلا طول موجتها أن تجاري محطة هويزه Huizen الهولندية التي تجعل قوتها ٧ كيلووات نهاراً و٥٠ كيلو وات ليلاً

هذا رأيي أبديته لعله يقع موقع استحسان لدى مصر الفتية وحكومتها النبيلة

بوسعادة — الجزائر بلكر عيسى

من روائع الشرق والغرب

محمد إقبــــال

من رباعياته المسماة « شقائق الطور »

ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام

١ — ياقلبي إلامَ تجهل جهل الفراشة الزعناء ؟ إلام تحيد عن سَنَن العظماء ؟ احرق نفسك مرة بنارك . إلام تطوف بنار غيرك ؟

٢ — يارب أية لذة في الوجود ؟ كل ذرة هائمة بهذا الشهود . تشق الوردة الفنن النضير ، فتبسم فرحاً بهذا الظهور

٣ — سمعتُ الفراشةَ في العدَم تقول : هب لى من الحياة حرقة واضطرابا ؛ اذرُ رمادى في السحر ، ولكن متعني بالحياة ليـــلة

٤ — فتحت في ضمير النجوم سبيلاً ، وظللت بنفسك جاهلاً ، كن كالنواة وأبصر نفسك ، لتخرج نخلةً باسقة من تُربتك

٥ — ترنم الطائر الفردِ على الأفنان ، يقول في مطرب الألحان ؛ أخرج كل ما في صدرك صُراحاً : آهةً أو صرخة أو غناء أو نواحاً

٦ — يضيرك النظر في بستاني العجب ، إن لم يكن روحك شهيد الطلب ، انى أُبِينُ عما في ضمائر الأغصان ، وليس ربيعي طلسماً من الروائح والألوان

٧ — أنا بين طير المروج غريب ، أظل وحدى على غصن العش في نحيب . إن تكن رقيق القلب فقف مني بعيداً ، فانما يرشح دمي في أنفاسي تغريداً

٨ — تصبّ الحياة ألواناً جديدة كل حين ، ما الحياة صورة واحـدة على مرّ السنين . فان يكن صورةَ الأمس يومك فقد حُرِمتَ شرارةَ الحياة طينتك

٩ — ما علق قلبي بهذا البستان ، فمضيت طليقاً من قيود الزمان والمكان . ولكن كريح الصبا سريت ، فمنحت الورد اللون والنضرة ومضيت

١٠ — إن خمره جعلت خزفي كأس جم[1] ، واستسرّت في قطرتي فصارت كاليمّ . وضع العقل في رأسي صنماً ، وجعل « خليل »[2] العشق ديرى حرما

١١ — قُل عنيّ للشاعر الفلِق ، ما جدوى حرقتك إن احترقت كالشقائق[3] ؟ لا تصهر نفسك هذه النار ، ولا تنير للبائسين الديار

١٢ — أنا لا أعرف حسنك وقبحك . فقد جعلتَ عيارها خسارتك وربحك . ليس مثلي وحيداً بين بني آدم ، إني أرى بعين أخرى هذا العالم

عبد الوهاب عزام

(١) كأس جم أو كأس جشيد كأس خرافية كان ملوك الفرس القدماء يرون فيها الأقاليم السبعة (٢) إشارة إلى بناء ابراهيم الخليل البيت الحرام . والمراد هنا التفريق بين العقل والعشق على رأى الصوفية

(٣) الشقائق أزهار حمراء فهي تشبه النار وليس لها حرارتها

رثاء

للشاعر الانجليزى اللورد بيرون

ترجمة الأستاذ محمود الخفيف

وهكذا تعدو عليك المنية ، فتذهبين فى غضارة إهابك وروعة جمالك ، كما يذهب كل شئ كتب له الفناء ؛ ويعود هذا الهيكل الرشيق وتلك المحاسن النادرة وشيكا إلى التراب !

لئن غيب اللحد هذا الجمال ، وحللت من الأرض فى بقعة يمر عليها الناس لاهين أو ضاحكين ، فان هناك عيناً لا تطيق النظر لحظة إلى ذلك القبر الذى يحتويك

سوف لا أسأل بعد اليوم أين موضعك من جوف الأرض ، ولا ولن أمد عينىّ إلى تلك البقعة فوق ظهرها . ولتنم هنالك الأزهار أو الأعشاب كيفما شاءت ، فبذلك لن تقع عليها عيناى

حسبى ما لاقيت دليلاً على أن من أحببت ، ومن سأحرص أبد الدهر على حبها ، قد تطرق اليها البلى كما يتطرق إلى كل شئ خرج من الأرض ؛ وما حاجتى بعد إلى حجر يقام أو علامة تنصب ، وكل ما حولى ناطق بأن ما كان بالأمس موضع آمالى ، قد أصبح اليوم . . . لا شئ ؟ !

ومع ذلك قد أحببتك حتى النهاية فى حماسة وقوة ، كما أحببتنى أنت ، يامن ظللت على عهدك طوال تلك الأيام السوالف ولا سبيل اليوم إلى تغيرك

إن الحب الذى طبعه الموت بطابعه لن يلحقه الفناء أبداً . فما تطاول الزمن بمذهب من حرارته شيئاً ، ولا المنافسة بقادرة على استلابه ، ولا المين بواجد طريقاً إلى إفساده . وفضلاً عن ذلك فسوف لا ترين ما قد أرتكبه بعد اليوم من هفوة أو تحول أو خطأ

لقد تذوقنا معاً من أيام الحياة أحلاها ، أما أمرها فسأتجرعه وحدى ، إذن لن ترى عينك بعد الموت الشمس التى تبعث البهجة فى الكون ، ولا العاصفة التى تنذر بالظلام والهم

إننى لأحسدك على تلك الضجعة الهادئة ، حيث لا تزعجك الأحلام ، ولذلك يخيل إلى أن أترك البكاء على موتك . كذلك لن آسف على انقضاء تلك المحاسن الغر ، فلم يكن مفر من أن أراها تذوى يوماً بعد يوم أمام ناظرى !

إن أسرع الزهور إلى الذبول وأسبقها إلى الفناء ، أعظمها تفتحاً وأشدها بهاء ، وإن تلك الزهرة التى بذت صويحباتها تفتقاً ونماء ، لتسقط وريقاتها واحدة تلو الأخرى ، وإن لم تمتد إليها الأيدى فتقطفها قبل أوانها

وإن رؤية تلك الزهرة وهى تموت ورقة فورقة ، لأوجع للقلب ، وآلم للنفس ، وأدعى إلى الحسرة ، من رؤيتها وهى تقتطف دفعة واحدة ؛ ذلك لأن أعيننا ، نحن بنى الأرض ، لا تستطيع أن تراقب خطى التحول من الجمال إلى القبح ، دون أن يمضها ذلك ويحزنها

وليت شعرى هل كنت أستطيع أن أرى جمالك وما حزت من معانى الحسن ، يخبو ثم ينطفىء ؛ ألا إن الليلة التى تتلو مثل هذا الصباح لأشد ما تكون الليالى حلكة وكدرة

لقد انقضى نهارك ضاحياً لم تشب صفاءه غمامة ، وبقيت حتى النهاية جميلة ناعمة ، وكأنى بك فى موتك العاجل كالشعلة تخمد فى وهجها دون أن تخبو ؛ كذلك الشهب التى تلفظها القبة الزرقاء ، أعظم ما تكون التماعاً حين تسقط من أعلى السماء

آه ! لو أستطيع البكاء كما كنت أبكى من قبل ... إذاً لجرت دموعى غزيرة ، على أنى لم أكن قريباً منك يوم مت لأقوم إلى جانب سريرك ساعة احتضارك ، شاخصاً فى وجهك فى هيام وأى هيام !

هنالك كنت أتناول جسدك بين ذراعى فأضمك ضمة خفيفة رافعاً بيدى رأسك المائل المحتضر ، كى أشهدك ولو بغير جدوى ، على ذلك الحب الذى لن يحسه كلانا بعد !

لقد تركتنى اليوم حراً طليقاً ، ومع ذلك لن يعدل كل ما يمكن أن تصل اليه يدى مما بقى فى الوجود من حسن ذكرى إياك كما أفعل الآن

إن ذكراك وهى لى منك ذلك التراث الوحيد ، الذى لن تصل اليه يد الفناء ، تعاودنى فى هذا الوجود المظلم المخيف فتزيدنى إعزازاً لذلك الحب الذى ضمه القبر ، والذى لا أعدل به شيئاً فى الحياة ، ولن يفضله فى نظرى سوى أيامه التى قضيناها معاً قبل أن يعدو عليك الموت !؟

الخفيف

الكتب

الاطـــلال

رواية قصصية مصرية — تأليف الأستاذ محمود تيمور
عرض ونقد بقلم محمد أمين حسونه

ليست «الاطلال» التي أخرجها الأستاذ محمود تيمور أخيراً سوى ثغرة بين مرحلتين في حياة المؤلف القصصية، وأقصد بالمرحلة الأولى فنه الذي يمت إلى الواقعية، وبالمرحلة الثانية نزعته الجديدة إلى التحليلية « السيكولوجية » ، هـذا فضلاً عن خلوها من سيطرة أية نزعة أوربية

والناقد الحصيف يلمس بين سطور « الاطلال » من عصير الفكر ووضوح الوصف وخصوبة الخيال ما يكفل لها حياة نابضة.

وقد عرف الأستاذ تيمور كيف يرتفع بموضوع روايته إلى أسمى من ذلك الفن الرخيص الذي يبدو في قصص غيره ، واستطاع أن يضيف إلى جانب مهارته في رسم بيئته ، تصويره لشعوره الخاص تحت نقاب شفاف من التورية الفنية ، متخذاً شخصية « سامي » مرآة تحجب وراء زجاجها الصقيل الثورة الكامنة المتأججة في فجر حياة كل شاب ، حتى تدفعه إلى الخروج من حالة القلق والحيرة إلى عالم الجسم وجحيم الشهوة

بسط المؤلف على لوحته أولاً رسم سامي ، وهو من أبناء الذوات الذين يعيشون في القصور المحاطة بالأسوار العالية ، تضم جدرانها العدد الوفير من الخدم والخصيان والأتباع ، ويأوي اليهم بين يوم وآخر ضيوف تستغرق إقامتهم الأسابيع بل الشهور

وعندما يستطرد المؤلف في وصف نشأة الصبي سامي تتنبه فيه ملكة التصوير ، فلا يفوته أن يسجل إعجاب ضابط المدرسة عندما يدعوه الى داره ليلعب مع ابنته فتحية ، وكيف يغرم الصبي بالفتاة وتستهويه رائحة الأنوثة المنبعثة من صورتها ، حتى إذا ما شب كان عنفوان اليقظة الغامضة يدب في أوصاله ، وتراه في ذات ليلة « أم خضير » — وهي خادمة حنكتها التجارب يتذكر دروسه وفتحية أمامه تخيط ملابسها فتسر اليه « لو كنت مكانك لما جلست هكذا أمام كتبي ، بل كنت أجلس الى جانبها أداعبها وأختلس قبلة »

كان في استطاعة سامي بحكم تربيته وبيئته أن ينهر الخادم ، أو يزجرها ، ولكن المؤلف يضعه في هـذا الموقف على أبواب لغز ، وكأن كلمات « أم خضير » جاءت اليه من عالم بعيد مجهول ، فأيقظت العواطف الراكدة في أعماق نفسه ، ودفعتها في طريق محفوفة بالآثام والمخازي

خطوات سامي في هذا الطريق الوعر قلقة مضطربة ، فهو موزع الاحساس الجسدي بين فتحية وبين الغانيات وزوجة أخيه تهاني ، وشخصيته في الرواية كخطواته غير مستقرة ، يبدو أحياناً في هدوء عجيب ، وأحياناً أخرى في عنف وشراسة . أما فتحية فيحوطها المؤلف بحالة غموض وإبهام وتجلد أمام الآلام ، بحيث لا تتفق شخصيتها مع الواقع ، وحالة تحفظ في التعبير بحيث يدفعها في الخفاء إلى كبت عواطفها كبتاً لا يمكنها معه أن تبوح بحب أو ترفع صوتها بشكوى برغم شعورها بالألم وإحساسها بأنها ليست مذنبة في نظر المجتمع . ولو أدرك المؤلف أن العواطف المكبوتة قد لا تخلو من الاحساس لاستكمل النضوج الفني للصورة

وعلى العكس يبدو فن المؤلف واضحاً وأفكاره مستوية وهو يعرض علينا عقب ذلك خيال فتحية غير المحدود ، عندما يتراءى لسامي بين ظلال الوعي ، وساعة هدوء الروح وابتعادها عن إثم الجسد ، فهي تتمثل له في طهارة كل فكرة وصفاء كل هاجسة ، حتى إن المؤلف ليكسو خيالها باشعاع من روح العطف والحدب على مصيرها . أما تهاني — زوجة أخيه — فهي مثال الفتاة العابثة النزقة التي لا تبالي بالتقاليد ولا بالأوضاع حتى إن صورتها كانت في عقله الباطن صورة امرأة غاوية قبل أن يفكر في ارتكاب الخطيئة معها ، فهي تتمثل له في وجه كل غانية يلقاها ، ونفس شخصيتها تتلاشى تماماً في الشهوة النجسة . ولما مات أخوه وأحس أمام جثمانه بالندم يفر وفر يطلب العزلة بعد ضجيج الآثم وانكفأ يستعرض حاله ، فقاده حاضره إلى التفكير في فتحية فخرج من صمته هائماً لا يلوي على شيء ، بعد أن أحس أن جدران القصر تنهار « كالأطلال » ، وأن شبح تهاني يطارده حتى أدرك القرية ، وهناك سأل عن فتحية فاذا بها قد ماتت ، وإذا طفل يجري أمامه عليه ميسم اليتم ومسحة من جمال فتحية فيحتضنه بعد أن يعرف أنه ابنه ثم يبكي . . .

***

والأستاذ تيمور الذي يجسم بعيني الفنان كل صورة في عالم الأنوار والظلال ينجح نجاحاً باهراً في وضع شخصية

مودة هانم بحيث تتراءى أمامنا بين السطور مثالا للمرأة التى استسلمت للقدر ، فهى لا تشكو ولا تحتج وإنما تترقب أن يلعب القدر دوره فى الخفاء فينزع زوجها من أحضان « ضرتها » وأن يعيده اليها سالماً . وحبذا لو أتى المؤلف إلى جانب هذا على طرق (مودة هانم) فى اجتذاب زوجها بوساطة السحر أو التنجيم مادام ينزع فى فنه الجديد إلى التحليلية

* * *

بين الشخصيات التى رسمها المؤلف شخصية تظهر ثم لا تلبث أن تختفى ، هى « أم خضير » ، والمؤلف إنما يحركها فقط فى المواقف التى تدفع فيها سامى إلى مواطن الاثم ، وتشابهها من هذه الناحية شخصية العيوطى — مساعد البستانى — فهى قوية برغم عدم وضوحها ، خصوصاً عند ما يلتقى به سامى ويطلعه على رغبته فى الوصول إلى زوجة أخيه فيجهز له على عادة العشاق فى الجيل الماضى زياً نسائياً يتمكن به من الوصول إلى خدر الزوجة

ومما يجدر بنا تسجيله للمؤلف أن النزعة الارشادية يختفى ظهورها تماماً فى فنه

ولعل أبرز طابع فيها هو « الصراحة » التى تطبعها من أولها الى آخرها ، وفى الصراحة منجاة من الأدب الأنانى الذى تغشاه دائماً سحابة مبهمة من نفس صاحبه فتدفعه الى إخفاء المعنى اخفاء جزئياً ، ولكن الصراحة فى الأطلال شىء آخر ، فهى تسهب فى التحدث عن العلاقة الجسدية بحيث تصورنا ضعافاً تحكمنا غريزة الجنس وتطغى على ميولنا وعواطفنا

وتمتاز « الاطلال » بارتباط شخصية سامى بأبطالها ارتباطاً يجعلهم يعيشون فى قرارة الموضوع لا فوق سطحه ؟

